قرية شتوره ، زمردة معلقة بصدر لبنان

خميلة وغدير في الصيف والربيع

شجر ينعم وماء يجمد في الشتاء والخريف

المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الخامس بعد المائة

١ يوليو سنة ١٩٤٤ — ١٠ رجب سنة ١٣٦٣

الحالة الجوية

وتأثيرها في الأجسام الحية

من أعظم بواعث الارتقاء العلمي ، اتصال علم بعلم . فعلم النفس اتصل بعلم وظائف الأعضاء ففهم الأساس العصبي للفكر والانفعال . وبعلم الغدد الصمّ فأدركنا من خفايا « الشخصية » بعض ما نجهل . والطبيعة اتصلت بالكيمياء فخرج علم الكيمياء الطبيعية الذي يتناول بناء المادة الدقيق ، وتوزيع الذرّات والجزيئات في السوائل وشحناتها الكهربائية . والفلك اتصل بالطبيعة والرياضة العالية ، فاذا نحن أمام البحوث الدقيقة في الضوء وصلة المادة بالطاقة ومصدر الحرارة في النجوم وشكل الكون ومبدئه ومنتهاه . والكيمياء اتصلت بعلم الأحياء ، فاذا في علم الكيمياء الحيوية ، أساس جديد لفهم المادة الحية ، وبعض أسرار الصحة والمرض

وفي العقدين الأخيرين ، اتصلت علوم الظواهر الجوية ، والإشعاع ، والفلك ، بعلوم الأحياء والطب ، فوصل العلماء إلى حقائق ونظريات جديدة ، تعين في فهم الصحة والتوعك والمرض والحالة النفسية ، ونمو النبات ودورات الولادة بين كثرة وقلة . وقد جمعنا في الصفحات التالية ، طرائف من هذه الأبواب ، تستوقف النظر وتوجهه إلى أبواب جديدة من البحث المجدي

حين تستيقظ في الصباح مسترخياً ، لا قبل لك بزحام الشوارع في طريقك إلى مكتبك ،

Orientalisches Seminar Freiburg i. Br.

أو بإرهاق المهام التي عليك أن تعانيها في المكتب ، نخيرٌ لك أن تنظر إلى البارومتر ، قبل أن تنظر إلى الترمومتر .

فالنظر إلى البارومتر يعينك على تبين حالة الجو : أباردٌ هو أم حار ؟ أساكن الهواء أم مضطرب ؟ أجافٌ أم رطب ؟ هل ارتفعت درجة البارومتر فجأة ، أو هبطت فجأة ؟ فهذا الشعور بالاسترخاء والاعياء ، قد يكون ردَّ الفعل في جسمك لحالة جوية طارئة ، لا أكثر ولا أقل .

ولكنك قد تقول : إن حالة الجو لا ترهقني . وقد تضرب بكفك على صدرك ، وتنشق الهواء وتزفره مباهياً بأن حالة الجوّ لا ترهقك . على أن علماء المتيوروبيولوجيا (العلم الذي يجمع بين علم الظواهر الجوية — متيورولوجيا — وعلوم الأحياء — بيولوجيا) يرون غير ذلك .

فالدكتور وليم پيترسن ، الأستاذ بكلية الطب في جامعة إلينوي الأمريكية ، يقول : إن حالة الجوّ تؤثر في حالة الجسم ، ولا سيما حين يطرأ على حالة الجوّ تغيير مفاجئ . وقد قضى پيترسن عشرين سنة في البحث العلمي والمشاهدات السريرية ، فخرج منها الى القول بأن حالة الجوّ تؤثر تأثيراً عظيماً في الجسم ، قلما يدرك ، منذ الولادة حتى الموت .

فكل تغيير في درجة الحرارة ، أو تقلُّب في درجة الضغط ، أو كل حركة من حركات الرياح ، يقتضي تغييراً سريعاً في الجسم قلما نشعر بهِ أو نتبينه . وأجسام بعض الناس تستجيب على التوّ لضرورة التغيير وملاءمة الحالة الجوية الجديدة . وهناك أجسام أخرى تتأخر في الاستجابة ، وقد يتفاوت التأخر بين اثنتي عشرة ساعة وثمان وسبعين ساعة . ثم انك لن تجد — بحسب قول بيترسن — استجابة متماثلة في جسمين ، لأنك لن تقع على جسمين متماثلين أو حالتين جويتين متماثلتين تماماً . فالمحيط الهوائي الذي نعيش فيه دائم التقلب .

وقد تجتاح بلداً ما عاصفةٌ قوية ثم تتلوها أيام صافية مشرقة . وقد تزول الحالة الجوية ، التي يكون الهواء فيها دافئاً رطباً ، فتعقبها حالة جوية هواؤها باردٌ جاف . ولكن مهما يكن التغيُّر في حالة الهواء ، فكل تغير فيها ، يعني تغيراً في ثقل الهواء أي في ضغطه الجسم ، وإذن فهو يعني تغيراً في الأعمال الطبيعية والكيميائية التي يعملها الجسم .

وهذا التغير لا يقتصر على ضغط الدم ، بل يشمل تركيبهُ وتوازنهُ الكيميائي ، كما يشمل عمل القلب والكليتين والمعدة .

فحين تهبُّ موجة بردٍ ، يكون الهواء جافًّا ثقيل الوزن نسبيًّا . فيزداد الضغط البارومتري ، فيضغط الجسم بخلاياهُ وأوعيتهِ . وقد يبلغ الضغط على الجسم ستة عشر طنًّا

ونصف طن . فالهواء في هذه الحالة ، يضغطك كما تضغط يد جبَّار كرةً مفرغةً من المطاط .

ولكن الهواء متقلب متحرِّك لا يستقر ، فوزنهُ يتغير . وقد تعبر موجة الهواءِ البارد الجاف ، فتتلوها موجة من الهواء الدافئ الخفيف . فيخفض الضغط البارومتري ، فيخفُّ الضغط الواقع على جسمك ، وقد يكون فرق الضغطِ ألوفاً من الأرطال .

فكل تغير في حال الجوِّ ، يقتضي من الجسم ملاءمة الحالة الجديدة . وبعض الأجسام تستطيع أن تحدث هذا التلاؤم ، وبعضها عاجز عنهُ في يُسر وبغير انزعاج

ومعظم المشقة يكون ساعة الانتقال المفاجئ من الحرّ إلى البرد . فالانتقال إلى البرد ، يقتضي من الجسم زيادة ما يولده من الحرارة . فيزداد ما يحرقهُ الجسم من المواد التي تولد الطاقة ، ويرتفع ضغط الدم ، وتزداد حموضته ازدياداً نسبيًّا .

وحين يبدأ الضغط في الهبوط ، بعد ارتفاعهِ إلى هذه الذروة استجابةً لدواعي الحالة الجوية ، تسترخي الأوعية التي كان الدم يجري فيها متدفقاً ، وقد يبلغ من هبوط الضغط ، أن يبطئ دوران الدم ، وقد تقف حركته في بعض الأوعية فيتخثر . وقد تحدث وفيات .

فاذا كنت رجلاً سويَّ الخلْق ، وجميع خلايا جسمك وأعضائهِ تنهض بعملها على وجهٍ سويّ ، كان في وسعك أن تواجه التقلب في حالة الجوّ بغير مشقة ، فتحصل الملاءمة بين جسمك وحالة الجوّ على منوال ذاتي قد لا تشعر بهِ . على أن تغير حالة الجوّ ، واستجابة جسمك لهُ بغير أن تدري ، قد يظهران في حالتك النفسية . فحين المطر ، قد تشعر بالاسترخاء والانقباض الناشئين إلى حدّ ما ، عن هبوط ضغط الدم ، أو قد تميل إلى البَرَم والشكوى . ولكن حين ينهض جسمك ويندفع الدم في عروقك ، على أثر برد الجوّ برداً مفاجئاً ، تحسُّ توفزاً وابتهاجاً ، ثم إذا تغير الجوّ قليلاً ، أحسستَ بالتعب حتى لتعجز عن رفع إصبعك ، وهذه الحالة تعرف باسم « إعياء الحالة الجوية » .

والتأثر بالحالة الجوية على هذا المنوال يبلغ مبلغ الخطر ، إن كنت مريضاً . لأن التقلب في حالة الجوّ يؤثر في المرضى أكثرمما يؤثر في الأصحاء ، وفي النحاف أكثر مما يؤثر في السمان ، وفي الرجال أكثر مما يؤثر في النساء .

فالنشاط المفاجئ الناشئ عن تأثير الحالة الجوية ، وما يصحبهُ من تغير في ضغط الدم وفعل القلب ومعدَّل استنفاد الطاقة المذخورة في الجسم ، قد يكون عبئاً يعجز المريض عن حمله . وقد يكون « القشة » التي تقصم ظهر الجمل ، الفارق بين الحياة والموت .

فان كنت نحيفاً ، فالبرد والمطر — في نظر علماء المتيوروبيولوجيا — هما خصماك العنيدان . والربيع هو فصل الخطر . فأنت سريع الحركة متوثب تعيش بأعصابك ، وليس في

جسمك أطباق من الشحم تدرأ عنك الصدمات ، وكل تغير في حالة الجوّ يترك أثره فيك .

وأنت ذلك الطراز من الرجال الذي يأكل ويأكل فلا يسمن . فجسمك لا يخزن شيئاً ويحرق كلّ شيء ، وفي جسمك ميل الى فقد الفيتامين والكلسيوم واليود وغيرهما من المعادن . وأنت أدنى الى فقدها في الربيع ، لأن كثرة التقلب في حالة الجو ، خلال الربيع ، تقتضي من جسمك الملاءمة اللازمة . وفي هذه الحالة ، تتردد نفسك كثيراً بين حالتي الابتهاج والانقباض ، فيسهل أن تصاب بالإعياء العقلي والجسماني .

فاذا طالت فترة المطر ، أو إذا حدث انقلاب فجائيٌّ في حالة الجوّ ، أصبت بحالة عصبية تقرب من أحد أنواع الجنون . فاذا كان فيك انحراف أصيل إلى الانتحار فقد يكون البرد الشديد ، أو حالة الانقباض الشديد التي تلي فترة المطر ، حافزاً إلى الاقدام عليهِ .

وقد وجد الدكتور لفنسون — أحد موظفي مكتب تسجيل الوفيات في مقاطعة كوك بولاية إلينوي — أن بين المنتحرين في النصف الأول من السنة ، يغلب النحاف من الناس . فهو القسم من السنة الذي تكثر فيهِ عواصف الشتاء . أما في النصف الثاني فتكون نسبة المنتحرين من السمان أعلى .

ويرى الدكتور پيترسن أن الرئيس ابراهام لنكولن ، مثلٌ للرجل النحيف الذي يشتدّ تأثره بحالة الجو . فحالتهُ النفسية كانت متقلبة ، ونشاطهُ قريب النفاد ، وكان هذا التقلب فيهِ يوافق التقلب في أحوال الجوّ ، فذهب من حولهُ ، حتى منذ ثمانين سنة ، إلى ان الحالة الجوية هي السبب .

وكان المطر والبرد ، أكثر أسباب الانقباض في نفس لنكولن . وكان انقباضهُ يشتدّ في الربيع ، ثم يخف في الصيف والخريف ، وكان الجوّ الدافئ والضغط البارومتري المستقرّ يبدّدان انقباضه ، فيستردّ ثقتهُ بنفسهِ ويميل إلى التفاؤل .

فاذا كنت سميناً ، كنت أقل تأثراً بتقلب الجو ، فلا يصدمك تغيره المفاجىء ، وما خزن في جسمك من شحم ونشا وكلسيوم وفيتامين وماء ، يدرأ عنك التأثر بصدمة التقلب ، كما يدرأ قضيب الحديد في مقدم السيارة تأثير الصدمة . على أن جسم السمين يفقد « مرونته » حين يكتهل ، وقد يصاب بأمراض القلب أو السكر أو تصلب الشرايين فيشق على جسمه إحداث الملاءمة السريعة اللازمة التي يقتضيها التغير في حالة الجو . وتتأثر حالته النفسية بذلك فيميل إلى التهييج .

فاذا كنت سميناً ، فالحرارة والرطوبة — في نظر علماء المتيوروبيولوجيا — هما خصماك . وفصلا الصيف والخريف هما فصلا الخطر . فاذا طالت فترة الحرارة والرطوبة زادت قلوية

جسمك . وضغط دمك يزداد كضغط دم النحيف حين يتحوَّل الجو من الحرارة إلى البرد . أما هو فيميل إلى التراخي والاعياء . وأما أنت فتحس أنك جم النشاط . ولكن هذا الشعور لا يلبث أن يتحوَّل إلى سرعة الانفعال والتهيُّج ، وقد تصاب بالصداع العصبي ، فاذا بلغ هذا الطور أقصاه مدىً وتأثيراً ، فقد يؤدي إلى الانتحار أو القتل .

وينصح الدكتور پيترسن بما يلي : تبين رجع الحالات الجوية المختلفة في جسمك ، فاذا كنت نحيفاً ، يسهل تأثر جسمك بتقلب الجو ، فاعمد إلى كل ما يزيد وزنك ، والزم الدفء وتجنب التعب الجسمي والعقلي والعاطفي . وإذا كنت سميناً فاعمد إلى ما يخفض سمنتك ، ولكن لا تبالغ في ذلك ، والزم الهدوء والراحة وتجنب الحر .

وإذا كنت مريضاً أو أحسست أنك متعب مرهق وأنك عاجز عن احتمال الجو الذي لا يستقر على حال من القلق ، فاذهب في إجازة إلى مكان ملائم أو غيِّر مقر سكناك . ولكنك برغم ذلك كله لن تفلت تماماً من تأثير الحالة الجوية .

على أن الجو ليس قوامه الرياح والعواصف ، والجفاف والرطوبة ، والبرد والحر والضغط البارومتري ، وحسب . بل تخترقه ضروب الاشعاع من ضوء الشمس إلى الأشعة الكونية . ولبعض هذه الضروب تأثير في الحالة النفسية في رأي بعض العلماء .

فقد عرف العلماء من عهدٍ بعيد أن كل قدم مكعبة من الهواء الذي نتنفسه تحتوي على دقائق مكهربة — وتعرف باسم ايونات أو شوارد — بعضها مكهرب كهربائية موجبة وبعضها مكهرب كهربائية سالبة ، وهذه الدقائق محمولة في الغبار وقطيرات الماء وما أشبه . ولكننا ما نزال في مفتتح عهد جديد في فهم ما لهذه الدقائق من التأثير في الشؤون الحيوية ، لأن العلماء لم يتمكنوا إلاَّ من عهد قريب ، من السيطرة على حالة الجو الكهربائية سيطرة خاضعة لقواعد التجربة العلمية .

فالأيونات يمكن توليدها في الهواء باطلاق شرارات كهربائية فيه أو أشعة إكس أو مقذوفات الراديوم أو بفعل الأشعة الكونية وماكان من قبيلها . حتى شعلة من النار في موقد متأجج تؤيِّن الهواء إلى حدٍّ ما ، أي تولد فيه هذه الدقائق المكهربة أي الأيونات .

ثم هناك أجهزة خاصة تمكن العلماء من أن يخرجوا من قدر معين من الهواء في معمل البحث الدقائق المكهربة الموجبة أو الدقائق المكهربة السالبة ثم يدرس تأثير الباقي .

على هذا النمط وجد الأستاذ دسور Dessauer في جامعة فرنكفورت أن المرضى الذين يتعرَّضون للدقائق المكهربة الموجبة يشعرون بالتعب والإعياء والدوار والصداع . فلما أزيلت

الدقائق المكهربة الموجبة من الهواء الذي يتنفسونه وتعرضوا للدقائق المكهربة السالبة زال الصداع وحل محله شعور الانشراح والنشاط .

وقد أجريت التجارب في ضغط الدم وتأثرهِ بحالة الهواء من حيث وجود الدقائق الموجبة أو الدقائق السالبة فيه، فظهر أن وجود الأولى يزيد ضغط الدم ويحدث شعور الراحة والطمأنينة . بل هناك ما هو أعجب مما تقدم : ذلك أن استنشاق مقادير من الدقائق المكهربة السالبة مدى أسابيع أفضى إلى تحسين الحال في ثمانين في المائة من إصابات ضغط الدم . ولا ريب انك أيها القارىء قد سمعت المصابين بالروماتزم يتحدثون بما يشعرون به من تقلب حالة الجوّ قبل حدوثه . فهل لهذا الشعور وهو أشبه ما يكون بالتكهن بالجو أساس علمي ؟

لقد أثبت الأستاذ دسور أن الناس المعرضين للروماتزم زادت آلامهم وتضخمت مفاصلهم وارتفعت حرارتهم قليلاً عند استنشاقهم هواء كثرت فيه الدقائق المكهربة « الأيونات » . ومعروف عند علماء أحوال الجو أن العاصفة قبل حدوثها يسبقها هبوط في ضغط الهواء ، فيصعد الى سطح الأرض هواء كان محفوظاً بين دقائق التراب . وقد ثبت أن الهواء الذي يكون بين دقائق التراب تكثر فيه الدقائق المكهربة الموجبة ولعلّ وجود هذه الأيونات يزيد آلام المصابين بالروماتزم قبل انفجار العاصفة .

ثم إن الهواء يحتوي على أيونات كبيرة وأيونات صغيرة ، وقد كشف الباحثون في معهد كارنيجي بوشنطن ان الأيونات الكبيرة تكثر بعد الغروب والأيونات الصغيرة تكثر قبل الشروق . ولعلّ هذا الفرق بين الليل والنهار أهم من الفرق في الرطوبة بينهما . بل لعلنا نجد في هذا الفرق تفسيراً لتأثيرها الفسيولوجي في جسم الانسان .

* * *

وهاك تجربة أخرى عجيبة وضعها الدكتور ملز أستاذ الطب التجريبي في جامعة سنسناتي الأميركية .

فقد ربيت طائفة من الجرذان منذ ولادتها — بعد أن قسمت ثلاث جماعات — في ثلاث بيئات متفاوتة الحرارة ، فكانت حرارة إحداها ١٨ ١/٣ درجة مئوية والثانية ٢٥ درجة مئوية والثالثة ٣٢ درجة مئوية . ثم امتحنها ليعرف قدرتها على التعلم . فصنع تيهاً وضع طعامها في آخره ، ومبدؤه في هذا التيهِ ، أن الطريق إلى الرأس يمرّ بالبطن .

فالجرذان التي ربِّيت في البيئة الأولى — وهي أبرد الثلاث — وجدت طريقها إلى الطعام بعد اثنتي عشرة محاولة ، والجرذان من الثانية وجدت طريقها بعد ثمانٍ وعشرين

محاولة . ولكن الجرذان من الثالثة وجدت مشقة عظيمة ، فبعضها وصل إلى الطعام بعد ثمان وأربعين محاولة ، ولكن كثيراً منها عجز واستسلم للإخفاق مفضلاً الجوع على إرهاق العمل .

وامتحنت الجرذان جميعاً مرة أخرى بعد ثلاثة أشهر . فالجرذان التي ربيت في البيئة الأولى — البارد بالقياس إلى الآخريين — تذكرت منعطفات التيه التي تفضي بها إلى مكان الطعام ، فلم تكد تتردَّد . والجرذان من الثانية ، تذكرت رويداً رويداً ولكنها نجحت آخر الأمر . أما جرذان البيئة الثالثة التي بلغت الطعام في التجربة الأولى ، فقد نسيت كلَّ ما تعلمتهُ فيها ، وتعيَّن عليها أن تحاول محاولة جديدة تماماً .

ويرى الدكتور ملز ان المواليد الذين تحمل بهم أمهاتهم في الأشهر الباردة أدنى إلى النشاط والذكاء والنجاح من الذين تحمل بهم أمهاتهم في الأشهر الحارة . وقد راجع سجلَّ العظماء لدراسة هذه الناحية دراسة إحصائية ، فوجد ان ٢٧ رئيساً من ٣١ رئيساً من رؤساء الولايات المتحدة . بدأ الحمل بهم بين دسمبر ويوليو . وليس بينهم واحد بدأ الحمل بهِ في أغسطس . وغيرهم من الرجال الممتازين على هذا الغرار . فالذين تحمل بهم أمهاتهم في أشهر الربيع أميل إلى النجاح في العمل وإلى طول العمر من الذين يحمل بهم في أشهر الصيف الحارَّة . وسبب ذلك في رأيهِ أن نشاط الجسم البشري يتبع دورة سنوية ، يبلغ فيها الذروة في الربيع حين يكون الجو بارداً مستفزًّا للنشاط . ثم تهبط الى الحضيض في أشهر الصيف حين يكون الجوُّ حارًّا رطباً باعثاً على الاسترخاء . قال : "ولو كنت حاكماً بأمره لجعلت يناير لا يوليه شهرَ الزواج .

وإذا كنت ممن يعيشون في جوٍّ بارد تسعة أشهر أو عشرة أشهر من كلِّ سنة ، كان خليقاً بك أن تقضي إجازتك في جوٍّ دافىء ، وأن تعمد فيه إلى الراحة والقيلولة ، فيخف معدَّل الاحتراق في أنساج جسمك ، ويحدث هبوط يسير في ضغط دمك ويطول عمرك .

ولعلَّ الحاجة ماسَّة — في رأي ملز — ، إلى دكتاتور صحيّ ، يعيِّن لكل امرئ خير مكان يقضي اجازتهُ فيه !

هذه نواحٍ قليلة ، من تأثير الجوّ في الحمل والولادة والصحة والنشاط والحالة النفسية ، وقد يكون بعضها في حاجة إلى التأييد العلميّ ، ولكنها في مجموعها تبيِّن أن بين حالة الجوّ وحالة الجسم والنفس صلة وثيقة ، وأنها جديرة بالاستقصاء العلمي الدقيق .

الفجر الروحاني

لبودلير*

« . . . هو الآن مؤمن بأن في الدنيا خيراً وجمالاً ، وهو سعيد كل السعادة بذلك الايمان . وهذا هو في درك الهاوية يتطلع اليها مؤملاً في الخلاص على يديها مستبشراً متهللاً متفتح الروح لهذا الفجر الروحاني

« حين يدخل الفجر الأبيض الزاهر في قلب الفاجر
« ومعهُ المثل الأعلى المنشود بوخزه الأليم
« يفعل سرُّه الخفي فعله القاهر
« فإذا في البهيم الهامد يستيقظ مَلكٌ كريم

« وإذا السموات العلا الروحانية
« ينفتح فلكها المكوَّر البعيد المنال
« فاغراً سحيقاً ، له ما للهاوية من جاذبية
« للصريع الذي لا يزال متألماً حالماً بالكمال

« كذلك — يا ربتي الحبيبة ، يا ذات الطهر والصفاء —
« على البقايا الداخنة من ليالي العربدة الخرقاء
« تهفو أمام عيني الشاخصة في الفضاء
« ذكراك وضاءةً زاهرةً ساحرةً بغير انتهاء

« في وجه الشمس تصبح نيران الشموع كابية كامدة
« كذلك ذكراك على الدوام ظافرة غالبة
« أيتها الروح المنيرة ! أيتها الشمس الخالدة ! »

---

* عن « الشاعر الرجيم » تأليف عبد الرحمن صدقي ، نشر مطبعة المعارف ، سلسلة اقرأ

مآثر الملك فؤاد

على معاهد العلم

لمحمد زكي الابراشي باشا (١)

مولاي وسيدي وابن سيدي :

رعاك الله وحفظك ورفع شأنك وأعلى ذكرك في العالمين، وجعل التوفيق حليفك وأدامك للعلم مؤيداً ونصيراً، لقد كنت اليوم يا مولاي كعادتك دائماً باراً بأبيك العظيم، ومثلك من يضرب الأمثال للناس في البر

ولقد خفق قلب الشعب معك وشاركتك الأمة بأسرها في هذه الذكرى الغالية، وكان في المقدمة رجال جامعة فؤاد الأول وهي غرس يدي أبيك وأعضاء مجلس ادارة الجمعيات والهيئات العلمية العديدة التي أنشأ أبوك بعضها ورأس البعض الآخر ، ورعاها جميعاً بعينه الساهرة . وذلك اعترافاً منهم جميعاً بفضله . وان الجمعية الجغرافية التي أنشأها جدكم العظيم ورأسها وسهر على مصالحها والدكم العظيم لتعتز بتشريفكم اليوم في هذا المكان الذي طالما شرّفهُ أبوكم من قبل، وستسجل هذه الزيارة الكريمة في أجمل صفحاتها .

ولولا طمعي في كرمكم لقعد لساني عن الكلام، وكيف أستطيع الكلام عن مآثر قرن في ساعة ، وأنّى لي أن أحصي حسنات قرن وهي عديدة تجل عن الحصر

ولكني خادم مخلص لكم ولأبيكم من قبل، والخادم يطمع دائماً في كرم سيده، لذلك أستأذنكم في البدء بكلمتي مع اعترافي بالعجز والتقصير

في مثل هذا اليوم من سنة ١٩٣٦ فقدت مصر ملكاً عظيماً وعالماً جليلاً وراعياً حكيماً وهو المغفور له الملك فؤاد ، فكانت خسارتها بفقده في ذلك اليوم فادحة ؛ بل هي خسارات متعددة قلّ أن تصاب بمثلها أمة في يوم واحد

---

(١) القيت في الجمعية الجغرافية بمناسبة الاحتفال بذكرى المغفور له جلالة الملك فؤاد الاول

ولد في سنة ١٨٦٨ وتربى بادىء الأمر في سويسرا ، ثم أتم علومه العسكرية العالية في ايطاليا ، والتحق بعد ذلك بالسلك السياسي العثماني لأن مصر كانت تابعة سياسيًّا للدولة العلية ، فكان ياوراً للسلطان عبد الحميد ثم ملحقاً عسكريًّا لتركيا في بلاد النمسا ، ولكن سرعان ما تحرَّر من قيود الوظائف لأن نفسه العالية كانت تصبو الى التزود من العلم ، ولذلك أكمل دراسته بنفسه في السوربون بحضور محاضرات فيها ، علاوة على دراساته الخاصة التي يمكنني القول بأنها استمرت طول حياته ، فاستطاع بذلك التضلع من الآداب والفلسفة والجغرافيا والتاريخ . وقد أعد نفسه لخدمة مصر من طريق العلم لأنه وجد بفكره الثاقب أن لا حياة للأمم إلاَّ بالعلم وان بلاده محرومة من جامعة يثقف فيها الشبان ، فقبل رحمه الله أن يكون أول عميد للجامعة المصرية ، وقد نشأت شعبية واكتفى بادىء الأمر بكلية واحدة وهي كلية الآداب ، وأقبل الكثير من كبار العلماء في أوربة مغتبطين بالعمل معهُ في هذه الجامعة الناشئة الفتية . وكان رحمه الله وهو من أكبر أمراء البيت العلوي الكريم يقوم بهذا العمل حسبة ابتغاء وجه الله والوطن . وقد كان شديد الاهتمام بجامعته يحضر اليها كل يوم ليقوم بواجبه الذي فرضه على نفسه ولا ينساها حتى في أسفاره للراحة والاستجمام ، فكان ينتهز فرصة وجوده في أوربة لمقابلة العلماء والعظماء والوزراء طالباً منهم مساعدة جامعته الناشئة وايجاد الصلات العلمية الوثيقة بينها وبين الجامعات الكبرى . ونجح في ذلك الى حدٍّ كبيرٍ كما تشهد بذلك الكتب والمؤلفات العديدة التي أهديت للجامعة في أول نشأتها وبالأخص من ايطاليا وفرنسا

وبعد أن تبوأ عرش مصر وطد أركان هذه الجامعة وجعلها حكومية تنفق عليها الدولة بسخاء من الأموال العامة ، ونشطت البعثات العلمية في زمنه نشاطاً يفوق ما كان عليه الحال في زمن جده الأكبر محمد علي وأبيه اسماعيل ، واستكمل كليات هذه الجامعة واعترفت بها الجامعات الكبرى في أوربة ، واستقرت كلياتها على ضفتي النيل شاهدة بفضلهِ وجهوده المتواصلة في خدمتها ورعايتها .

ولقد اتجه بكل قواه إلى الهيئات العلمية في البلاد يشجعها ويخدمها بما وهبه الله من علم غزير وصحة ومال . وكان في مقدمة ما عني بهِ من هذه الهيئات العلمية الجمعية الجغرافية التي أولاها حبه وعطفه وكان لها في نفسه منزلة خاصة لأن أباه الخديو اسماعيل هو الذي أنشأها . وقد كان رحمهُ الله يحب أباه حبًّا يفوق كل حب ويقدس ذكراه ويعتقد في قرارة نفسه أن التاريخ لم ينصفه وان كثيرين عملوا على حجب الحقيقة والتقليل من جهوده وان التاريخ لا شك منصفه متى بددت السحب وعرفت هذه الجهود الجبارة على حقيقتها .

وكان من الطبيعي أن يشمل برعايته الجمعية الجغرافية التي كان يرى فيها صورة من أعمال أبيه العلمية في خدمة مصر .

رأس الأمير فؤاد الجمعية وأسدى إليها من الخدمات ما سنذكر بعضه، واستمرَّ في رياستها إلى أن شاءت العناية الإلهية أن يتبوأ عرش مصر، عرش آبائه وأجداده ، ذلك العرش الذي زانه العلم ورعاية العلماء .

اعتقد من كانوا يعرفونه والملتصقون به أن العلم سيكون له أكبر شأن على يديه، كما ظن البعض أنه وهو العالم الكبير سيلهيه علمه عن السياسة، فاذا هو يحقق أمل الأولين ويخلف ظن الآخرين .

وليس من شأني اليوم أن أتكلم عن أثره السياسي فليس في مصر كلها من لا يحس به ، وليس هو موضوع حديثي اليوم ، وحسبي أن أشير إلى أنهُ تولى الحكم عند ما كانت البلاد تحت الحماية المقوتة والعالم في حرب طاحنة فتولاها سلطاناً، ولم تكد الحرب تضع أوزارها حتى رعى الحركة الوطنية ودافع عن مصالح بلاده وكرامتها فألغيت الحماية ونودي به ملكاً على مصر، وظلَّ يعمل ليل نهار. وكان الجو السياسي يصفو تارةً وتثور فيه الزوابع أحياناً وهو في جميع الحالات صابر يتحمل المكاره بشجاعة وجلد لا ينظر إلاَّ إلى عظمة مصر وسعادة أهلها، وانتهى بأن ألف بين قلوب الزعماء والكبراء وكوَّن منهم في آخر حياته جبهة وطنية بدأت المفاوضات مع بريطانيا لتحقيق استقلال مصر وفارق الدنيا وكله أمل في أن تنجح هذه المفاوضات ويحقق استقلال مصر، وقد انتهت المفاوضات بعد ذلك بمعاهدة الاستقلال.

والآن أعود إلى الكلام عن الجمعية الجغرافية لأقول كلمة في مآثر المغفور له الملك فؤاد الأول عليها ، ولا يسعني في هذا المقام إلاَّ أن أذكر بالخير فضل منشئها وهو والده العظيم الخديو اسماعيل .

لقد قيل بحق أن مصر هي مهد الجغرافيا، يؤيد ذلك ما ثبت من أن اول خريطة جغرافية في العالم وضعها المصريون في عهد الفراعنة وسجلوها على ورق البردي . وفي العصر اليوناني الروماني وفي القرن الثاني الميلادي ولد في مصر كلود بطليموس الذي أصبح عالماً من علماء الفلك واعتبر بحق أبا الجغرافيا لأنه وضع جغرافية وخرائط اعتمد عليها العالم إلى حين القرون الوسطى، وكانت أهم مرجع في شئون الجغرافيا.

ولقد شغف العرب بالجغرافيا ووُجد بين رجالهم من تركوا في هذا الشأن تراثاً قيّماً

كابن بطوطة صاحب الرحلات المشهورة . ولما شاءت العناية الإلهية أن يتولى حكم مصر محمد علي باشا الكبير واستقرّ له الحكم في مصر، بعد جهود موفقة ، اتجهت عزيمته الى السودان ففتحه وأرسل اليه كثيراً من المهندسين في بعثات للبحث عن المعادن ولا سيما معدن الذهب. ثم سافر رحمه الله بنفسه إلى السودان ووصل إلى فازوغلي وكانت سنه إذ ذاك ٦٩ سنة

وقد أحب أولاده وأحفاده الجغرافيا وعرفوا مزاياها وما يعود على البلاد من الخير بالعناية بها ، حتى جاء حكم الخديو اسماعيل العظيم، فعني رحمه الله بارسال كثير من البعثات إلى السودان وإلى أعالي النيل، ودانت له تلك البلاد بفضل جيوشه المظفرة واستخدامه لرجال ذوي صفات عالية أمثال صمويل بيكر وغوردون واسماعيل أيوب باشا والسردار راتب باشا وغيرهم .

وكانت له امبراطورية متسعة الأرجاء وامتدّ سلطانه على سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي، فكانت له هرر وبربر وزيلع ، كما امتدّ سلطانه إلى قرب بحيرة البرت وأنشأ صلات طيبة بواسطة غوردون باشا مع ملك أوغندا متيزا، وقد كان غوردون باشا حاكم المديريات الاستوائية المصرية والجنرال ستون باشا رئيس اركان حرب الجيش المصري يشيران على الخديو اسماعيل بأن ينظم حملة تضم أوغندا لحكم مصر حتى يكون بذلك النيل مصريًا من منبعه إلى مصبه، ولكن كان ذلك في أواخر حكمه، فلم تمكنه الظروف من تنفيذ هذا المشروع

وقد أنشأ المغفور له الخديو اسماعيل باشا الجمعية الجغرافية في مصر في سنة ١٨٧٥ وكانت أول جمعية جغرافية عرفها العالم هي جمعية باريس في سنة ١٨٢١ ثم جمعية لندرة في سنة ١٨٣٠ وفينا في سنة ١٨٥٦ وروما في سنة ١٨٦٧ وبودابست في سنة ١٨٧٣ . ومن هذا يرى أن جمعيتنا الجغرافية المصرية كانت في طليعة الجمعيات الجغرافية التي عرفها العالم، وهي بلا نزاع أول جمعية جغرافية في الشرق .

وكان قصد المغفور له اسماعيل باشا من إنشاء هذه الجمعية في مصر هو ايجاد مهاد صالح للعلماء والمكتشفين لكي يعرضوا نتائج أبحاثهم ومكتشفاتهم لجهات البحيرات والمناطق الاستوائية وبالأخص منابع النيل التي ظلت مجهولة من عهد الفراعنة إلى عهد اسماعيل حيث اكتشفت وعرفت ، وكان الفضل في ذلك للعلماء والرجال العظام الذين مدّهم إسماعيل بروحه الفياضة ولم يضن عليهم بالمال اللازم ، وهذه الجمعية الجغرافية التي كانت وحيدة في الشرق ونظائرها قليلة في الغرب وقت إنشائها أسدت إلى الجغرافيا خدمات كبيرة لاسيما بعد أن أنشأت لها مجلة ما زالت تصدر حتى الآن .

وفي سنة ١٩١٥ توفي المرحوم أبات باشا بعد أن ظل رئيساً للجمعية الجغرافية المصرية مدة ثلاث وعشرين سنة وكان ذلك في عهد المغفور له السلطان حسين، فرأى أن يعهد في رياسة هذه الجمعية التي أنشأها والده العظيم إلى أخيه العالم الأمير أحمد فؤاد (في ذلك الحين) علماً منه بكل ما يمكن أن تناله هذه الجمعية من الخير والتقدم على يديه المباركتين . وقد قبل الأمير هذه الرياسة وصدر بذلك مرسوم بتاريخ ٣٠ أكتوبر سنة ١٩١٥ وقد بعث فيها روحاً قوية وحياة جديدة إذ ضمَّ اليها نخبة من الأفاضل أمثال أحمد زكي باشا ومحمد مجدي باشا وبوغوص نوبار باشا والسناتور اداMولي وجورج فوكار والدكتور هيوم، كما زاد عدد المشتركين في الجمعية . ووجه عنايته إلى نظامها فأدخل عليه من التعديل ما يضمن لها السير في طريق التقدم واستصدر بذلك مرسوماً في ١١ أغسطس سنة ١٩١٧.

ولكي يضمن لها البقاء حصل على تعهد الحكومة لها حيث قررت لها - بناء على مساعيه الموفقة - إعانة سنوية ما زالت تصرف لها إلى اليوم . ولما كانت مصر في عهد والده العظيم قد وصلت في مكتشفاتها إلى ما لا مطمع لها بعده حيث اكتشفت منابع النيل حتى كاد يصبح مصريًا من منبعه الى مصبه، فقد وجه الأمير فؤاد جل همه أثناء رياسته إلى إظهار ما كان لأبيهِ من فضل على العلم لارساله البعثات التي وصلت إلى الجهات الاستوائية واكتشفت منابع النيل وهو ما يسجل بمداد الفخر للعائلة العلوية الكريمة . كما وجه عنايته إلى تنظيم محاضرات يلقيها كبار العلماء خدمة لمصر وساكنيها، فألقى ويلكوكس المهندس العالم المشهور سلسلة محاضرات عن الصرف في مصر . وكانت العناية إلى ذلك الحين موجهة إلى الري في حين أن العناية بالصرف كانت ضئيلة، فنبهت هذه المحاضرات الناس ووزارة الأشغال نفسها إلى خطر المضي في هذه السياسة، وأن العناية بالري يجب ان تكون مقترنة بالعناية بالصرف، وكان من جراء ذلك أن عنيت مصر وما زالت تعنى بالمصارف لتحول دون وقوع ضرر محقق بالتربة المصرية ظهرت بوادره مثلاً في مديرية من أخصب مديريات الوجه البحري وهي المنوفية، إذ بقيت بغير مصارف اعتماداً على خصب أرضها حتى ظهرت أضرار هذا الترك واضحة. ولذلك تقرر إنشاء المصارف فيها ونفذت هذه السياسة فعلا من سنوات، وأصبح من المبادئ الثابتة في وزارة الأشغال العناية بالمصارف التي انتشرت الآن في كل مكان وما زالت تنال من اهتمام الحكومات المتعاقبة ما تستحقه . وقد كان للجمعية الجغرافية مع غيرها من المشتغلين بهذه الشؤون فضل التنبيه إلى هذا الخطر والمطالبة بدرئه قبل وقوعه .

وألقيت كذلك محاضرات أخرى في موضوعات مختلفة نذكر منها على سبيل المثال

المحاضرات التي ألقاها المسيو جورج فوكار عن طبائع الشعوب الأفريقية ومحاضرة الدكتور حافظ عفيفي باشا عن رحلته من بنغازي إلى جغبوب في صحبة السنوسي الكبير. والمحاضرات التي ألقيت عن أخلاق المصريين وعاداتهم وتقاليدهم في العهد الحديث لدبانه وصيداوي . وقد نشرت هذه الأبحاث في الجزء الثامن من مجلة الجمعية بعد احتجابها بضع سنين .

ولقد وجه المغفور له الأمير فؤاد همه أثناء رياسته للجمعية إلى أن تظهر أبحاثها أولاً وقبل كل شيء كل ما يتعلق بمصر والسودان في حاضرهما وتاريخهما القديم والحديث . ووجه عنايته بنوع خاص إلى الأبحاث الخاصة بطبائع الشعوب الأفريقية، ونشر على العلماء أسئلة كثيرة خاصة بذلك . وكلف المسيو توماس أن ينظم تنظيماً علميًّا متحف الجمعية الجغرافي وهو متحف حوى مجموعات نفيسة عن أفريقية الاستوائية ، كما عني بنشر فهرس لما حوته هذه المجموعات . وقد تعهد الجمعية بكل ما يساعدها على القيام بمهمتها النافعة، إذ مدَّها بكثير من الكتب العلمية والخرائط، كما وثَّق صلات علمية وروحية بينها وبين الجمعيات الأخرى. وفي عهده قُبل مبدأ تبادل النشرات والأبحاث مع جمعيتنا المصرية

وقد ظلَّ المغفور لهُ الأمير فؤاد يرعى الجمعية الجغرافية ويخصها بعطفه وتشجيعه إلى أن دعته العناية الإلهية ليتبوأ عرش مصر فلم يقطع صلته بها بل زاد عطفه عليها وتشجيعه لها ماديًّا وأدبيًّا .

لقد شرَّفني رحمهُ الله بأن أكون ناظر خاصته ومدير الأوقاف الخصوصية الملكية كما شرَّفت بناءً على رغبته السامية بأن أكون عضواً في مجلس إدارة الجمعية وهو شرف أعتزُّ بهِ. وقد لمست وأنا بالقرب منه مقدار حدبه على الجمعية واهتمامه بشؤونها ورغبته الدائمة في ضمان حياتها وتقدمها . وطالما أمرني بأن أقدم لها من ماله ما يساعدها على القيام بمهمتها على أحسن وجه وأكمله . وقد بلغ مجموع ما دفعهُ من ماله مساعدة للجمعية في المدة من سنة ١٩٢٥ إلى سنة ١٩٣٥ أي في عشر سنوات مبلغ ٢٧ ١١٠ جنيهات دفعها من ماله راضياً مسروراً . وقلَّ من يعرف لهُ هذه المكرمات، لأنه لم يعط ما أعطاه للجمعية طمعاً في شهرة أو ليتحدث الناس عن ذلك، بل فعله ابتغاء وجه الله وخدمة الوطن.

وكانت هباته تختلف سنة عن أخرى بحسب حاجة الجمعية إلى المال أو اتساع نشاطها باقبال بعض العلماء على التأليف والنشر، فقد وهبها مثلاً ٦٢٥٠ جنيهاً في سنة ١٩٢٨ – ١٩٢٩

و ٦٠١٠ جنيهات في سنة ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ و ٥٠٠٠ جنيه في سنة ١٩٣١ ـ ١٩٣٢

وقد بلغت قيمة إعانات الحكومة للجمعية في العشر السنوات السابق الكلام عنها مبلغ ١٣٣٥٠ جنيهاً إذ كانت الحكومة تعطيها ألف جنيه سنويًّا تزيدها قليلاً في بعض السنين.

ولقد كانت هذه الاعانة الحكومية تمكن الجمعية من مواجهة مصروفاتها العادية ومرتبات موظفيها، ولم يكن يبقى لديها بعد ذلك مال يساعدها على النشاط العلمي. من أجل ذلك كانت الهبات الملكية التي زادت عن ضعف إعانة الحكومة ذات فائدة كبرى للجمعية. وقد تمكنت من التوسع في النشر الذي كلفها أزيد من عشرين ألفاً من الجنيهات. كما سمحت لها هذه الهبات بأن تغذي مكتبتها بما يزيد قيمتها العلمية وأنفقت في سبيل ذلك ٤٧٢٢ من الجنيهات في العشر السنوات المذكورة

وقد ازدان متحفها الأتنوغرافي بما جعله أكبر قيمة وأكثر نفعاً

كان من نتيجة تشجيع المغفور له الملك فؤاد للجمعية ومدها بهذه الهبات الملكية الكريمة أن اتسع نشاطها وزادت ثروتها العلمية وقد تمكنت في عهد حكمه من طبع أكثر من عشرين بحثاً كلها خاص بشؤون جغرافية مصر وما جاورها من البلاد.

ولا أريد أن أطيل عليكم بذكر هذه الأبحاث كلها، فأكتفي بأن أذكر بعض أمثلة :

فمنها بحث عن ميناء السويس للمسيو G. Jondet

وبحث له أيضاً عن اسكندرية وميناءها.

ومنها للمسيو G. Douin بحث خاص بأسطول بونابرت وشواطىء مصر وأبي قير.

وبحث للمسيو De La Ronciere عن اكتشاف أفريقية في القرون الوسطى. وجغرافية مصر في عهد العرب للمغفور له الامير عمر طوسون، والبحر الاحمر والحبشة وبلاد العرب من أقدم العصور للمسيو Kammerer ولهُ أيضاً البرتغاليون في المحيط الهندي والبحر الاحمر في القرن الخامس عشر.

ومنها معجم جغرافي للمسيو H. Gauthier اشتمل على الأسماء الجغرافية التي وردت في النصوص الهيروغليفية

وقد اشتركت الجمعية في عهده اشتراكاً نافعاً في أبحاث عالمية إذ طلب منها الاتحاد الجغرافي الدولي أن تجري بحثاً عن الساكن في الريف فقامت بهِ ووصل البحث إلى نتائج خاصة بمصر نافعة. وكانت مصر ثاني دولة أعلنت نتيجة بحثها في هذا الموضوع الهام.

وخدمةً للجغرافيا والتاريخ في مصر جمع في قصر عابدين كل ما كان في «دفترخانة» الحكومة بالقلعة من أوراق تتعلق بحكم محمد علي الكبير والخديو اسماعيل وهي مخطوطات لها قيمة علمية لا تقدَّر في نظر للعلماء الذين يريدون الوقوف على تاريخ مصر وجغرافيتها على الوجه الصحيح .

وقد كانت اللغة المستعملة في الدواوين وفي المخاطبات الرسمية في مصر وفي الخارج هي اللغة التركية ، واستمرَّ الحال كذلك إلى أن تولى الخديو اسماعيل حكم مصر ، فجعل اللغة العربية لغة الدواوين وحلت محل اللغة التركية . وقد هجرت تركيا بعد ذلك حروفها التركية وأحلت محلها الحروف اللاتينية ، وحصل هذا التغيير الهام في عهد المغفور له الملك فؤاد ، فأدرك بثاقب فكره أن هذا التراث العظيم سيضيع على الأمة كلما تقادم العهد ويصبح طلسماً من الطلاسم يصعب حله والافادة منهُ ، وعلم رحمهُ الله بأن هذه المحفوظات علاوة على الصعوبة التي ذكرتها مهملة ومحفوظة بغير نظام ولا ترتيب ، فعهد الى عالم هو استاذ اللغة التركية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس في جمع شتاتها ونشر ملخص لها ، فقام بذلك وشفع هذا الملخص بدراسة عن الادارة التركية في مصر في أوائل القرن التاسع عشر

وبعد نقل هذه المحفوظات إلى قصر عابدين أمر المغفور له الملك فؤاد بترجمتها الى اللغة العربية واستمرَّ العمل في ذلك طوال مدة حكمه . وها هي ذي محفوظات عابدين عامرة بهذا الكنز الثمين يرجع اليهِ العلماء والمؤرخون في أبحاثهم الخاصة بمصر فيجدون فيه ما يرفع رأس مصر عالياً ويظهر فضل العائلة الحاكمة على العلم وعلى البلاد

ولم يكتف رحمه الله بما تقدم بل كلف شخصيات كبيرة أن تنسخ لهُ صورة المستندات الدبلوماسية والمراسلات الرسمية التي تبودلت بين ممثلي الدول الأجنبية وحكوماتهم خاصة بمصر .

فقام رينيه قطاوي بك بنسخ صورة المحفوظات الروسية عن عهد محمد علي الكبير والمسيو A. G. Binis المحفوظات البولونية عن بعثة بولونية عسكرية في مصر في عهد محمد علي

وقام المسيو Georges Douin بنسخ كثير من المحفوظات الفرنسية في عهد محمد علي الكبير والخديو اسماعيل .

وقام المسيو A.G. Politis بنسخ المحفوظات اليونانية وعلاقة مصر باليونان في حكم محمد علي .

وقام سان ماركو بنسخ المحفوظات النمساوية والايطالية في عهد الخديو اسماعيل

وقد أنفق المغفور له الملك فؤاد في سبيل الحصول على صورة هذه المحفوظات الرسمية العظيمة القيمة بضعة ألوف من الجنيهات.

وقد نشرت هذه المستندات الرسمية في أربعين مجلداً ، كما نشرت مؤلفات كثيرة جعلت هذه المستندات مادتها الأساسية ولم يتم طبع كل ذلك في عهد المغفور له الملك فؤاد ، فأتمَّ جلالة الملك فاروق الأول ما بدأه أبوه العظيم ، وبذلك تمَّ طبع كل هذه المستندات وأهدى كل من الوالد وولده ما طبع في عهده إلى الجمعية الجغرافية لبيعه بأثمان قليلة تضم لايراداتها ويعم نفعها البلاد .

ولم تقف همة المغفور له الملك فؤاد عند ما سبق بيانه وهو كثير في ذاته ، بل انتهز فرصة وجوده بفرنسا في سنة ١٩٢٧ وتحدَّث مع المسيو جبرييل هانوتو وهو أحد وزراء فرنسا ومن كبار علمائها ليضع هو ونخبة من علماء فرنسا تاريخاً جامعاً لمصر من أقدم العصور إلى الآن وقد تمَّ الاتفاق معه بعد ذلك على تنفيذ هذه الفكرة السامية وطبع هذا المؤلف النفيس في سبعة مجلدات .

وقد أراد رحمه الله أن يعم النفع طبقات أكبر لا تصل إلى الحصول على هذا الكتاب النفيس ، فأمر بالاتفاق مع نخبة من العلماء على نشر مختصر لتاريخ مصر يكون في أربعة أجزاء ، وقد تم ذلك ونشر هذا الكتاب القيم وأعجب به كل من اطلع عليه وأهديت نسخ هذا المؤلف إلى الجمعية الجغرافية .ولا أشك في أن كل من اطلع على هذا الكتاب قد استفاد منه وقدر عظمة مصر من أقدم عصور التاريخ وفضلها على الحضارة والمدنية .

وقد تمَّ الاتفاق بأمر المغفور له الملك فؤاد مع الجنرال فيجان Weygand ـ وهو مع الأسف معتقل حربيّ الآن ، ومعلوم أنهُ من أكبر قواد فرنسا ـ على أن يضع كتاباً في التاريخ الحربي لمحمد علي وأولاده ، وتمَّ وضع هذا الكتاب وهو في خزانة كتب الجمعية الآن كما تمَّ بأمر جلالته الاتفاق مع الأميرال دوران فيَل Durand-Viel من كبار الضباط البحريين في فرنسا على وضع مؤلف عن الوقائع البحرية التي قام بها محمد علي الكبير وابنه إبرهيم

وقد بيّن هذا الكتاب كيف وصل أسطول مصر إلى أن يكون في عداد أساطيل الدول الكبرى .

وقد تمَّ طبع هذا الكتاب وهو في خزانة كتب الجمعية الجغرافية كذلك .

وقد أنفق المغفور لهُ الملك فؤاد في سبيل وضع هذه المؤلفات ونشرها عشرات الألوف من الجنيهات .

وإن من أنفس ما أهداه المغفور له الملك فؤاد إلى الجمعية الجغرافية خريطة إفريقية التي عملت في سنة ١٨٧٧ بأمر من المغفور له والده الخديو إسماعيل فقد أوجد في أركان حرب الجيش المصري قسماً جغرافيًّا يرأسه الجنرال ستون الأمريكي، وكان يعمل في هذا القسم ضباط مصريون ومعهم ضباط من الجنسيات المختلفة . وتمكن هذا القسم بناءً على رغبة الخديو إسماعيل من وضع خريطة كاملة لافريقية اشتملت على المكتشفات العظيمة التي تمت مدة حكمه وهي ست عشرة سنة ، ولم تنشر هذه الخريطة مدة حكم من كان له الفضل في وضعها، وظلت صحيفتها مطوية إلى أن جاءَ المغفور له الملك فؤاد، فرأى أن هذا الأثر العظيم من آثار والده العلمية لا يصح أن يبقى مجهولاً لا ينتفع به ، ودفعه حبه لأبيه وللعلم إلى أن ينشر هذا الأثر على الناس ليعم نفعه ، فطلب إلى مصلحة المساحة أن تطبع هذه الخريطة التاريخية القيمة مصغرة؛ و نفذت مشيئته، وأمر أن تسلم هذه الخرائط المطبوعة للجمعية الجغرافية وأبقى الأصل لديه .

لقد غيرت هذه الخريطة وجه جغرافية إفريقية فقد كانت الخرائط إلى عهد محمد علي تظهر أن في جنوب وادي حلفا أرضاً مجهولة حاول المغفور له محمد علي أن يكشف حقيقتها وذهب بنفسه إلى فازوغلي ، فلما تولى الخديو اسماعيل حكم مصر في سنة ١٨٦٤ أرسل حملات استكشاف متعددة وفقت إلى اكتشاف القبائل المتوحشة التي كانت تعيش حينذاك في السودان والكونجو ووادي وهرر ووصلت إلى اكتشاف منابع النيل نفسها

وقد شجع هذه الحملات تشجيعاً كبيراً حتى إن حملة صموئيل بيكر وحدها من سنة ١٨٧٠ إلى سنة ١٨٧٤ كلفته ما يقرب من مليون جنيه .

إن هذه الخريطة تظهر لنا أن إسماعيل العظيم ضمّ إلى مصر المديريات السودانية والمديريات الاستوائية ودارفور وكردفان ووصل إلى المحيط الهندي ، وصارت رقعة مصر مدة حكمه ثلاثة ملايين من الكيلومترات المربعة وهو ما يعادل نصف أوربة كلها .

وبعد وفاة المغفور له الملك فؤاد تفضل جلالة الملك فاروق وأمر باهداء أصل هذه الخريطة إلى الجمعية ، وأرسلت بكتاب مؤرخ في ١٩ يونيه ١٩٤٠ ذكر فيه أنها من وضع أركان حرب الجيش المصري بأمر جده المغفور له اسماعيل باشا لم يعثر عليها أحد بعد أن غادر مصر، وظلّ الحال كذلك حتى وجدها والده العظيم فأمر بطبعها مصغرة، ورأى مولانا الملك المعظم حبًّا في تعميم نفعها وبرًّا بوالده وجده أن يهديها إلى الجمعية . وقد تقبلت هذه الهدية الكريمة شاكرة ، وهي معروضة في مدخل الجمعية .

ومن الهدايا النفيسة التي أهداها المغفور له الملك فؤاد إلى الجمعية خريطة دقيقة للوجه البحري وضعها في سنة ١٢٨٩هـ العالم المشهور محمود باشا الفلكي بأمر الخديو اسماعيل وأثبت عليها أن أول خريطة عملت للأقطار المصرية هي التي عملها الفرنسيون في سنة ١٢١٣ هجرية ولكن تلك الخريطة كانت مملوءة بالأغلاط لجهل المهندسين الذين قاموا بوضعها لغة البلاد ، ولأنهم لم يكونوا في حالة اطمئنان تام ، إذ أن البلد لم تقبل الانقياد لحكم الفرنسيين

وبعد أن بيّن الصعوبات التي صادفته لوضع خريطة دقيقة ، وكيف أنهُ استعمل الفلك في وضعها ، ختم عبارته بأنها استلزمت في وضعها بضع سنين ، وقبل أن يتم وضعها وجد أن الخديو اسماعيل باصلاحاته العظيمة في خلال هذه السنين قد غير معالم الدلتا بما أصلحه من أراضٍ وما حوّله من برك إلى مزارع ، فاضطر أن يثبت ذلك في خريطته .

كانت هذه الخريطة ضمن محفوظات المغفور له الملك فؤاد الخاصة ، فأمرني بإهدائها إلى الجمعية الجغرافية ، وهي من بين الخرائط الكثيرة المحفوظة بها والتي تزدان بها قاعاتها .

وفي سنة ١٩٢٩ أهدى المغفور له الملك فؤاد إلى الجمعية ثلاثمائة مجلد في موضوعات فلكية وجغرافية ، وكان ورثة المغفور له محمود باشا الفلكي أهدوها لجلالته

وقد أهدى إليها كذلك خزانة كتب المغفور له البرنس حيدر فاضل ، وهي مكونة من ٧٧٨٢ مجلداً وهي كتب قيمة أهديت إلى جلالة الملك فؤاد ، فأهداها إلى الجمعية ، وهي الآن في إحدى قاعاتها .

وفي سنة ١٩٣٣ تمكن رحمهُ الله وهو في المانيا من شراء خمسة آلاف ومائتين وأربعين خريطة يرجع عهدها إلى آخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . وكانت للامبراطور نابليون الأول وزوجه الامبراطورة ماري لويز ، وقد اشتراها بنية إهدائها إلى الجمعية الجغرافية ليزيد بها ثروتها العلمية ، فأهداها اليها وهي بها الآن

ولما أتمت جمعيتنا الجغرافية خمسين سنة من عمرها الطويل ان شاء الله رأى المغفور له الملك فؤاد ان تحتفل بعيدها الخمسيني احتفالاً فخماً فدعا لذلك المؤتمر الجغرافي الحادي عشر ليعقد جلساته في القاهرة وكان ذلك في سنة ١٩٢٥(١) .

وقد لبى الدعوة خمسمائة عضو يمثلون مائة وعشرين جمعية علمية من جميع البلاد الأجنبية وقد تتبع الملك فؤاد أعمال هذا المؤتمر وأكرم مثوى العلماء الوافدين على

---

(١) راجع مقتطف مايو ١٩٢٥

مصر بمناسبة انعقاده ، وقد نجح نجاحاً منقطع النظير . ولكي تفيد مصر منه أمر جلالة الملك فؤاد بطبع أعماله وقد استلزم ذلك خمسة مجلدات طبعت في مدى سنتين وتزدان بهذه المجلدات خزانة كتب الجمعية وفيها أبحاث أكبر علماء الجغرافيا في العالم . وفي تلك السنة نفسها وبمناسبة هذا المؤتمر أوجد الملك فؤاد الجمعية الجغرافية في مكانها الحالي الذي نحن فيه الآن . وبعد المؤتمر وفي السنة نفسها افتتح الملك فؤاد مدينة بور فؤاد على الضفة الشرقية لقناة السويس في حفل رائع أعاد للأذهان حفلات أبيه العظيم .

وفي سنة ١٩٢٦ قبلت جمعيتنا في الاتحاد الجغرافي الدولي بجانب الجمعيّات الجغرافية الكبرى في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وايطاليا والنمسا وبلجيكا ، فقرت بذلك أعين الملك الراحل الكريم حيث كان ذلك بمثابة تتويج لعمله المتواصل في خدمة الجمعية .

• • •

ولقد كان لعمل الملك فؤاد وهو رأس العائلة المالكة واهتمامه بالجمعية الجغرافية أثره المحمود في نفوس أمراء البيت المالك الذين يجري في عروقهم دم محمد علي الكبير والذين أشربوا حب مصر ، فاهتم كثير منهم بنواح مختلفة من جغرافية مصر ، فقد أخرج المغفور له الأمير عمر طوسون عدة مؤلفات وأبحاث تتعلق بجغرافية مصر وتاريخها في عصورها المختلفة قديمها وحديثها .

وعني حضرة صاحب السمو الأمير يوسف كمال بأن يجمع في مكتبته مؤلفات نفيسة نادرة عن جغرافية مصر في عهود مختلفة ، وبالأخص في عهد البطالسة . ونشر على نفقته في مجلدات ضخمة فخمة خرائط بديعة عن افريقية ومصر بعضها من وضعه ، وكذلك أخرج بياناً بمن ألفوا في تاريخ مصر وجغرافيتها في عهد الفراعنة والافريقيين والرومان والعرب الى القرن الخامس عشر . وطبع هذا المؤلف النفيس في اثنى عشر مجلداً وأسماه : المجموعة الكمالية في جغرافية مصر والقارة الافريقية لصاحبها يوسف كمال ، وأهداه لجده الأكبر الحاج محمد علي .

ومن كبار الأمراء أيضاً المغفور لهُ الأمير كمال الدين حسين الذي أحب الصحراء ، وقد جاب الصحراء الغربية عدة مرات ووضع عن رحلاته هذه خريطة من أنفس الخرائط ، وأصلها محفوظ بالجمعية الجغرافية .

ومن مآثر المغفور له الملك فؤاد على الجمعية الجغرافية مساعدته لحضرة صاحب المعالي أحمد محمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي الذي سجل له التاريخ أنه من الروّاد المكتشفين . ويحق لمصر أن تباهي بذلك .

لقد فكر حسنين باشا في سنة ١٩٢٢ في أن يجوب الصحراء الغربية من الشمال إلى الجنوب آملاً أن يكتشف الواحتين المفقودتين : العوينات وأركنو

وكاشف بعض الشخصيات في ذلك ، فلم يهتم أحد بمشروعه ، ورأى فيه البعض حلماً لا يمكن تحقيقه ، فألهمه الله أن يتقدم بمشروعه للمغفور له الملك فؤاد . وما إن علم الملك بما صحت عزيمة حسنين باشا عليه حتى أكبر فيه هذه الهمة وشجعه على المضي في تنفيذ مشروعه وأمده بالمال وبكل تأييد أدبي ، وأوصى به الحكومة خيراً . وقد كتب له النجاح ووفق التوفيق كله في مهمته العلمية ، واكتشف الواحتين المفقودتين السالف ذكرهما ، ووضع خريطة قيمة تبين خط سير رحلته والجهات التي اكتشفها ، ووضع عن رحلته هذه مؤلفاً ظريفاً تزدان به المكاتب المصرية والأجنبية .

ولقد اغتبط المغفور له الملك فؤاد أشد اغتباط بهذا التوفيق ، وكرّم هذا المكتشف المصريّ في حفلة عشاء صدحت فيها موسيقى الحرس الملكي ، وشرّف جلالته بنفسه حفلة أقيمت في الأوبرا تكريماً لحسنين باشا ، وأنعم عليه برتبة البيكوية ونيشان النيل من الطبقة الثالثة ، وسلم إليه صورته زيادة في التكريم .

وقد قدّر الاتحاد الجغرافي الدولي عظم قيمة اكتشاف حسنين باشا فعينه وكيلاً للاتحاد وهنأه اللورد ادوار جليسن رئيس الجمعية الجغرافية البريطانية ، وأنعم عليه جلالة ملك بريطانيا العظمى بالمدالية الذهبية للجمعية الجغرافية ، ولولا عناية الملك فؤاد بحسنين باشا وتشجيعه له على المضي في تنفيذ مشروعه لما نالت مصر ولا الجمعية الجغرافية المصرية التي هو الآن رئيسها بالنيابة كل هذا الشرف العظيم .

ولقد كان المغفور له الملك فؤاد دائب التفكير في الجمعية الجغرافية وفي ما يعود عليها بالخير ولم ينسها ابداً حتى في أسفاره ، فلقد كان لي شرف مرافقته في رحلته الى سيوه ، فأمرني رحمه الله أن أجمع من سيوه كل ما يهم متحف الجمعية الاتنوغرافي ، وكان يشرف على هذا العمل بنفسه حتى إذا ما اكتمل ما جمعه اغتبطت نفسه بهذه الهدية التي أعدها لتقدم للجمعية عند رجوعه من رحلته دليلاً على تعلقه بها وحبه لها .

ولم ينس عند ما كانَ يسافر إلى أوربة وهو ملك أن يزور في كل بلد جمعيتها الجغرافية عسى أن يقتبس منها ما ينفع جمعيتنا التي أنشأها أبوه ، ولقد استفادت الجمعية فعلاً من هذه الزيارات .

ترون مما ذكرت من بعض مآثر المغفور له الملك فؤاد على العلم والجمعية، وهو قليل من كثير لا يستطاع حصره، أنهُ كان دائم التفكير فيها وفي ما يرفع من شأنها، ولكن مما يؤثر في النفوس أشد تأثير أنهُ حتى آخر أيام حياته كان يحبها ويفكر في خيرها ، ولذلك كان مما ختم به حياته بالنسبة لها انهُ أهدى إليها في شهر ابريل الذي دعاه الله فيه لجواره هدية قيمة ثمينة ، وهي تحف سودانية وحبشية كانت في متحفه الحربي الخاص بعابدين . ومنها أسلحة دفاع وأسلحة هجوم وأشياء خاصة بثورة المهدي في السودان، وأشياء أخرى خاصة بالحياة في السودان والحبشة ، ومجموعة مداليات خاصة بحكمه وما وقع فيه من حوادث جسام

ما أكرم هذه النفس الزكية وما أبرها !

لا شك أن المغفور له الملك فؤاداً العظيم عمل على رفع شأن الجمعية الجغرافية دائماً وفي كل الظروف ، عمل لذلك ابناً باراً بأبيه ، وعمل لذلك رئيساً ، وعمل لذلك ملكاً ، وعمل لذلك عالماً ، وقد أفلح في كل هذه النواحي .

وقد فاضت روحه الطاهرة في مثل هذا اليوم، فانطفأ بذلك سراج وهاج كان يضيء مصر ويهديها إلى الصراط المستقيم، وأفلت شمسه المشرقة عن هذا الوجود ، فسبحان الحي الذي لا يموت . وإنا لله وإنا اليهِ راجعون.

ولا يعزينا في مصيبتنا فيه إلاَّ أنهُ ترك فينا شبله العظيم جلالة الملك فاروق الأول الجالس على عرش مصر الذي يترسم خطوات أبيه وأجداده العظام ويشمل العلم والعلماء بجميل رعايته السامية . وقد نالت جمعيتنا الجغرافيـة من عنايته وعطفه وبرّه وهداياه الكريمة المتتاليـة ما يعجزها عن القيام بواجب الشكر . ولا غرابة في ذلك فجلالته يضرب الأمثال للناس للبرّ ببلاده وبأبيه وجده العظيمين . مدّ الله في حياته الغالية ولا حرم جمعيتنا عطفه ورعايته الدائمة ، وأنال مصر على يديه كل ما يتمناه لها من مجد وعظمة .

وإني أبتهل إلى الله جلت قدرته أن يسكن المغفور لهُ فقيدنا العظيم الملك فؤاداً فسيح جناته، وأن يجزيه على ما أسداه لجمعيتنا وللبلاد خير ما يجزي به عباده الصالحين من النبيين والصديقين والشهداء .

جوّ جزيرة العرب

وأثره في الهجرات السامية

للدكتور رفيق التميمي

يعتبر المؤرخون نهضة العرب في القرنين السابع والثامن الميلادي من الحوادث العالمية الكبرى التي تستحق كل عناية ودرس وتمحيص، وهم لا يرون من الصواب في شيء اعتبار هذه النهضة حادثة منفردة وقعت في ظروف خاصة لن يكون لها مثيل في تواريخ الأمم الأخرى . والحقيقة أن هذه النهضة يجب أن تحتل المكان الأول في تواريخ الأمم نظراً لما رافقها من الحوادث الجسام والوقائع الخارقة للعادة . كذلك لا يحسن أن يُعدّ ما نكتبهُ هنا مقالا من ورائه العاطفة أملاه علينا إعجابنا بالأعمال الحربية الممتازة التي قام بها قوّاد العصر الراشدي الأفذاذ . والحقيقة التي لا شك فيها أن نهضة العرب وانتشارهم خارج جزيرتهم بتلك السرعة المدهشة لا يمكن درسها وفهم حقيقتها إلاَّ إذا اعتبرنا العوامل الاقليمية والبشرية المتصلة اتصالاً وثيقاً بجغرافية البلاد الطبيعية ومركزها بالنسبة إلى خط الاستواء .

لقد اعتاد مؤرخو الاسلام أن يدرسوا هذه النهضة على أنها نتيجة لعمل الحكومة الاسلامية العربية التي وضع أسسها المتينة النبي الكريم . كما أنهم يلقون نظرة إعجاب وتقدير على ما قام بهِ الصحابة الكرام من الأعمال الحربية العظيمة وما نالوه من النجاح والتوفيق المنقطع النظير في ساحات القتال في سورية والعراق ومصر . هذه حقيقة لا يمكن لمؤرخ منصف إلا أن يسلم بها . على أننا من ناحية أخرى لا نرى من الحكمة أن نغفل عوامل أخرى جيولوجية لها شأنها في تبسط العرب وانتشارهم السريع خارج جزيرتهم .

لقد كان لهذه العوامل والمؤثرات دخلٌ كبير في الهجرة السامية الأولى . ومن المؤسف حقًّا أن لا نرى المؤرخين ـ إلاَّ القليل منهم ـ قد التفتوا إلى هذه الهجرة وتطوراتها وما نجم عنها من النتائج الخطيرة في حياة الأمم في الشرق الأدنى .

لقد اختلف العلماء في تعيين موطن الساميين الأول . ولهذا الاختلاف أهمية كبرى في دراسة تواريخ الأمم القديمة : ففريق من العلماء ادعوا أن سهول ما بين النهرين هي الموطن الأول للساميين، على حين قام آخرون من المؤرخين فخالفوا هذا الرأي وادعوا أن هذا الموطن السامي الأول يجب أن يكون في جزيرة العرب نفسها ، وكانت حجة هؤلاء أقوى وأمتن من حجة الذين جادلوهم. وقد ظلوا ذوي الكلمة العليا في عالم البحث والتدقيق الى أن قام المستشرق الطلياني جويدي Guidi ووضع رسالته المعروفة سنة ١٨٧٩ ادعى فيها أن بلاد العرب لا يمكن أن تكون الموطن الأول للساميين . وقد دعم آراءه بأدلة استمدها من الفروق البارزة في طرق معيشة الشعوب السامية المختلفة واللهجات الشائعة فيما بينهم ، ثم نبه إلى أن هذا الاختلاف لا يمكن أن يكون إلاَّ إذا كان الساميون قد انتشروا من بلاد فيها من السهول والأمطار والأجواء والأودية ما لا يمكن العثور عليه إلاَّ في بلادٍ مماثلة لسهول ما بين النهرين .

وحين صرح المستشرق جويدي بهذه النظرية وأخذ يدعم آراءه ببراهين قوية علمية تقدّم لمناقشته علماء آخرون وحاولوا الرد عليه والبرهنة على خطأ نظريته، فكتبوا في ذلك الموضوع مقالات طويلة وألفوا كتباً ضخمة ، وفيها الشيء الكثير من الآراء المفيدة . ومنذ ذلك التاريخ حتى أيامنا هذه والمستشرقون يقومون بجولات علمية جريئة في بلاد الشرق الأدنى ويستخرجون من أرضها آثاراً قيمة تتعلق بالمدنيتين البابلية والآشورية ، منها ما هو قديم جدًّا وقد يرتقي إلى ما قبل خمسة آلاف سنة ق . م . وقد كان لهذه الاكتشافات نتائج خطيرة لأنها برهنت على أن الهجرة السامية إلى الرافدين كانت قد تكرّرت على ممر الأجيال السحيقة ولا سيما ما يتعلق منها بالهجرة الكلدانية المتأخرة . برهنت هذه المكتشفات أيضاً على أن موطن هؤلاء الساميين الأول كان في نواحي البحرين واليمامة . وهذه البلاد التي انقلبت الآن إلى سهول رملية قاحلة كانت في الأدوار التاريخية الأولى بلاداً عامرة – على ما يظن – بكثير من المدن والقرى . وهذا الاكتشاف نقض رأي المستشرق جويدي من أساسه ودعم الرأي القائل بوجوب الفحص عن آثار الموطن السامي الأول في جزيرة العرب . ولقد ظهرت آراء في الجيولوجية طريفة دعمت هذه الفكرة وحملت المؤرخين على أن يتجهوا كل الاتجاه إلى الرأي القائل بهجرة الساميين الأول من أقاصي الجزيرة ، وذلك بعد أن ثبت لدى العلماء أن خليج البصرة آخذ في الانكماش، وقد كانت شطوطه الغربية تنتهي عند مدينة نينوى، أما الطبقات الرسوبية التي تكوّنت منها بلاد ما بين النهرين فلقد ظهرت في الأدوار

الجيولوجية الحديثة . ومما يستغرب أن هذا الحادث الجيولوجي لم يسترع أنظار المستشرقين إلاّ في السنين الأخيرة .

وهنالك أمرٌ آخر جديرٌ بالدرس والتمحيص، وهو أنهُ في الزمن الذي ظهر فيهِ الساميون وأخذوا يذهبون إلى أقاصي بلادهم كان السومريون يسكنون في جهات ما بين النهرين، ويُظن أن هؤلاء كانوا قد نزحوا إلى هاتيك البلاد من نواحي جبال أورال والطاي وهم ينتمون إلى الجنس المغولي ولا يمتون بأي نسب إلى الجنس السامي . وكانوا يعيشون عيشة مدنية بالقياس إلى الأقوام المجاورة لهم . وهذا ما حملنا على الاعتقاد بأن لهؤلاء تاريخاً أقدم من تاريخ الساميين ببضعة آلاف من السنين . وقد زعم المؤرخ المعروف Buge بأن المدنية السومرية نشأت قبل المسيح بنحو ثمانية آلاف سنة، وهو زعم لا نظن فيه شيئاً من المبالغة أو الوهم . ويدلنا على ذلك ما قام بهِ العلامة هومل من التدقيقات الفلكية في بلاد بابل ، وما اكتشفهُ البحاثة مورغان من الآثار القديمة من تلال سوسة ، تلك الآثار التي أرجعها العلماء إلى ما قبل المسيح بنحو اثني عشر ألف سنة . وهذه الآثار تتصل اتصالاً وثيقاً بما تركه السومريون

ويؤخذ مما تقدم انهُ لم يكن هنالك مجال لافتراض أن الساميين كانوا مستوطنين تلك الديار أيام السيطرة السومرية على بلاد ما بين النهرين . لذلك نرى من المعقول أن نفحص عن موطنَ للساميين في أماكن أخرى . وهذا ما عزز النظرية القائلة بأن الموطن الأول-السامي يجب أن يكون بعيداً عن بلاد ما بين النهرين .

ومع كل ما ذكرنا ، نرى من الواجب أن نعترف بأن المستشرق جويدي قد ظلَّ مسيطراً في زعمه إن بلاد العرب لا يمكن أن تكون المنشأ والموطن الأول للقبائل السامية . وهكذا ظلت النظريتان المتناقضتان في نشأة الساميين رائجة مدة طويلة دون أن تتغلب إحداها على الأخرى إلى أن ظهر المستشرق الطلياني لئون كايتاني Caetani الذي تناول الموضوع من الوجهة الجيولوجية وأخذ يبرهن بالطرق العلمية على أن مواطنه المستشرق جويدي لم يكن على حق فيما كان يدعيه .

لقد نبه كايتاني الأذهان إلى أن الأحوال الطبيعية في بلاد العرب لم تكن قبل الفين أو ثلاثة آلاف سنة من التاريخ الميلادي بحالتها الطبيعية والجوية الحاضرة ، وأن جفاف الجوّ السائد الآن في هاتيك الديار لم يكن إلاَّ نتيجة لتطورات جيولوجية وإقليمية استغرقت مدة طويلة . ويذهب كايتاني إلى أن الجفاف الحالي قد بدأ في أواخر الدورة الثلجية الأخيرة .

ومن المعلوم لدى علماء الجيولوجية أنهُ منذ زمن بعيد متوغل في القدم يقدَّر بنحو ربع مليون سنة اشتد البرد في نصف الكرة الشمالية بوجهٍ عام وفي انكلترة بوجه خاص فاندفعت متجمدات شبه جزيرة اسكتلنده جنوباً واكتسحت شمالي انكلترة إلى أن بلغت وادي التَّيْمِيز. وقد شوهدت آثار المتجمدات هذه في شمالي أوربة وآسية وأمريكة الشمالية ووصلت المتجمدات في أمريكة الشمالية الى درجة ٣٠ من درجات العرض الشمالية .

واختلف العلماء في تعليل هذه الادوار الثلجية، فقال بعضهم إن البرد الذي سبب تلك المتجمدات كان منشأه انحراف في فلك الكرة الأرضية . ويقدر الفلكيون حدوث هذا الانحراف مرة في كل بضعة ملايين من السنين . وقد علل العلامة ليل Lyell حدوث تلك الأدوار الثلجية والمتجمدات ، وحاول أن يرجعها إلى تغييرات جغرافية حدثت في الكرة الأرضية .

والعصر الجليدي هذا كان يتخللهُ فترات ركود سادت فيها الأجواء المعتدلة، وكان يقابل هذه الأدوار الثلجية أمطار غزيرة جدًّا تتساقط بصورة متتابعة في كل من المناطق المعتدلة والمعتدلة الحارة . وقد ثبت لدى العلماء أن هذه الدورة الثلجية العنيفة قد قسمت إلى ستة أدوار طويلة الأمد انفصل بعضها عن بعض بفترات ركود طويلة الأجل في الدور الثاني وقصيرته في سائر الأدوار . وظلّ القسم الأعظم من أوربة مستوراً بطبقة ثلجية كثيفة أكثر من دور واحد مدة طويلة . وفي الدور الثاني الذي كان أشد الأدوار الثلجية وأعنفها بلغ سمك الطبقة الثلجية أكثر من الف متر كانت تغطي معظم بلاد الانكليز وبحر الشمال وأكثر من نصف ألمانية وروسية الأوربية . وفي خلال فترات الركود التي تتخللت الأدوار الثلجية كانت المتجمدات تزحف من الشمال إلى الجنوب مكتسحة الجانب الأكبر من نصف الكرة الأرضية الجنوبي تاركة وراءَها جوًّا معتدلاً وحرارة منعشة، وهذا ما علل وجود هياكل عظمية لأفيال وجدت في منطقة الأحراج الكثيفة في سيبيرية ، أما البحار القطبية فقد صفا فيها الجو وذابت فيها الثلوج وأصبح الهواء على نحو لا نجده الآن إلاّ في البلاد المعتدلة. درس هذا الموضوع كل من العلامة جيكي Gaikie في كتابه The Great Ice Age في طبعته الثالثة ، والدكتور كرول Croll في مؤلفه القيم ، المسمى : الأقاليم والزمن The Climate and Time.

وفي خلال الأدوار الثلجية الكبرى ، وفي فترات الركود التي كانت تنتاب الكرة الأرضية كانت البلاد الواقعة بين خط الاستواء ، وآخر حد وصلت اليه الطبقات الثلجية الكثيفة

تتمتع بجوٍّ ممطر رطب، ويقدّر العلماء أن الأمطار الشديدة ظلت تتساقط بغزارة لا يتصورها رجل العصر الحاضر، مدةً لا تقل عن مائتي ألف سنة. ويستفاد من الدراسات الجيولوجية المتتابعة التي تمت في الجبال الآسيوية والأفريقية أن الأمطار كانت تتساقط عليها بغزارة عظيمة على حين كانت في الوقت نفسه تسود الأدوار الثلجية أقسام أوربة الشمالية.

* * *

ويؤكد علماء الجيولوجية أن صحارى البلاد العربية الواسعة ظلت عرضة لأمطار غزيرة خلال عصور كثيرة، يدلنا على ذلك ما تركته هذه الأمطار من الجروف والأودية والآثار البارزة في جبال سينا وشمالي أفريقية وعلى سفوح الجبال الغربية المطلة على البحر الأحمر.

وكان يجري في أواسط أفريقية نحو الشمال ثلاثة أنهر عظيمة: هي وادي ميا ونهر ايغارغار ونهر النيل. فالنهران الأولان جفَّا نهائيًّا بعد الدورة الثلجية الأخيرة، أما نهر النيل فلقد ظلّ محافظاً على عظمته وعلى تدفق مياهه الغزيرة، لأن منابعه تقع في نواحٍ أبعد في الجنوب من النهرين الأولين. وكان يجري في جزيرة العرب أنهر عظيمة. وفي الدورة الثلجية الثانية العنيفة تشكلت المتجمدات في أودية جبال سينا الصخرية. وقد اكتشف العلماء آثار هذه المتجمدات، ودرسها درساً دقيقاً العلامة جيكي Gaikie ولو واصل العلماء دراساتهم الجيولوجية في جبال مدين لاكتشفوا فيها آثار متجمدات مماثلة. ومن أنهر جزيرة العرب وادي الحمث الذي بنيت مدينة يثرب على أحد فروعه. وكان هذا النهر يصب في البحر الأحمر. وهنالك أنهر ثلاثة أخرى كانت تجري في السهول الواسعة المؤلفة لبلاد نجد والحسا. وأول هذه الأنهار وادي المرحان الذي كان ينبع من مكان يقع في الناحية الشرقية من جبال حوران، ثم يخترق سهول الجزيرة الشمالية ويصب بالقرب من مدن البابليين الخربة أيام لم تكن هنالك دولة بابلية، وكان الخليج الفارسي يمتد إلى النواحي التي بنيت فيها فيما بعد مدينة الهيت على نهر الفرات. والنهر الثاني هو وادي الرمة، وقد كان منبعه شرقي مكة، وكان يتجه نحو الشرق فينضم اليه عدة فروع ثم يصب في بحر عمان ما بين مدينتي (اور) و (ادريدو) السومريتين. والنهر الأخير هو نهر الدواسير وهو أكبر أنهر الجزيرة العربية، وكان يقع منبعه شرقي بلاد اليمن ويسير نحو الشمال مخترقاً سهل الربع الخالي، إلى أن يلتحق بوادي الرمة بالقرب من شواطئ خليج البصرة.

وفي هذا الدور الجيولوجي الذي كانت جزيرة العرب تتمتع فيه بأمطار غزيرة كان وادي الشريعة بحيرة عظيمة تبدأ من جنوبي جبال حرمون وتمتد حتى وادي العربة ، ولربما اتصلت مياهه عند مدينة العقبة بالبحر الأحمر .

ويبدو مما تقدم أن الصحارى الأفريقية الوسطى والشمالية وسهول جزيرة العرب المحرومة الآن مياه الأمطار كانت خلال الأدوار الجيولوجية المبحوث عنها تتصف بجوٍّ ممطر منعش وبحرارة معتدلة . كانت الأنهار فيها تنساب بين شجر الأحراج الكثيفة وكان يعيش في تلك الأحراج أسراب من الأفيال والكركدن والتماسيح . ويجد القارئ مقالاً طريفاً في هذه الأسراب من مقالات نشرها المستشرق اليسوعي الأب لامنس في مجلة المشرق الصادرة في بيروت سنة ١٩٠٥ ، ووجدت آثار متحجرة لهذه الحيوانات الضخمة في بعض أماكن أفريقية الشمالية وفي شمال جزيرة العرب وفي بعض المغاور وبجبل لبنان . وآخر الحيوانات التي انقرضت هي الأفيال والأسود . وكان ملوك الأشوريين يصيدونها في صحارى البلاد العربية قبل المسيح بألف ومائة سنة .

ويتضح مما تقدَّم أنه بينما كان معظم النواحي الأوروبية وشمالي آسية خالياً من السكان في الأدوار الثلجية كانت جزيرة العرب والصحراء الكبرى وجنوبي آسية تتمتع بجوٍّ معتدل وأمطار غزيرة وتزخر بأنواع النبات والزرع والشجر . وعلاوة على ذلك ذهب بعض العلماء إلى أن جزيرة العرب كان يسكنها حينئذٍ طائفة من الناس ينتمون إلى دوري بالئوليتيك ونئوليتيك . ودافع عن هذا الزعم العلامة دوعيتي الذي وجد في بعض أنحاء الجزيرة آلات فطرية كان يصنعها ويستخدمها رجل هذين الدورين . وهذا الزعم ليس بغريب عن بلاد العرب التي كانت في تلك الأدوار الجيولوجية تتصف بجوٍّ معتدل وبأمطار غزيرة وحرارة صالحة لسكن المخلوقات الحية . أما هضبة إيران فقد كانت مغطاة بالمتجمدات التي تحول دون تكوين موطن لأي كائن حي . وحين انتهت الأدوار الثلجية وأخذت درجة الحرارة تتساقط تدريجيًّا قلت كمية الأبخرة المتصاعدة من مياه البحار وقلت معها مياه الأمطار التي كانت تتساقط بغزارة مدهشة . وهكذا أخذ يحل الجفاف محل الرطوبة في بعض أقسام الكرة الأرضية . وقد درس هذه الحالة الجوية الطارئة الدكتور فرول وذهب إلى أن الجفاف البطيء سيظل يعمل عمله خلال نحو عشرين الف سنة من السنين القادمة ثم تعود الكرة الأرضية إلى ما كانت عليه من الرطوبة والاعتدال قبل الدورة الثلجية السادسة . ونحن لا نرى من الممكن مناقشة الدكتور فرول في زعمه بشأن جوّ الكرة

الأرضية في المستقبل البعيد ، بل نرى من المعقول والممكن أن نعود إلى الماضي القريب منه والبعيد . فنقول ان بلاد العرب والصحراء الكبرى كانت كما قلنا آنفاً -- تتمتع بجوّ معتدل وحرارة مقبولة وأمطار غزيرة ، وأنها حافظت على هذه الأمطار مدة طويلة بعد انتهاء الدورة الثلجية الأخيرة ، ثم حلّ فيهما دور الجفاف وأخذ يعمل عمله في أسلوب بطيء جدًّا ، وبتعاقب العصور قلت مياه الأمطار وبقلتها جفت الأرض وقلت مياه الأودية والأنهر . وقد ظلّ الجفاف يعمل في التخريب حتى نضبت الأنهر ويبست الأرض وانقرضت معالم الحياة الحيوانية والنباتية وحلت محلّ الآحراج الكثيفة سهول رملية قاحلة تعرّضت لأشعة الشمس المحرقة في النهار وإلى برد الجو القارس في الليل ، فتفتتت بسبب هذه العوامل الجوية الصخور واستحالت سهولاً رملية نراها منتشرة الآن في جميع أنحاء جزيرة العرب تهدّد كل من يقترب منها بالموت الزؤام ، بسبب جفافها الفظيع وحرارتها الكاوية ، وفقدان جميع أسباب العيش والمأوى . وقد لا يعرف مبلغ خطر هذه الصحارى المخيفة إلاّ الذين ارتادوها واكتووا بحرّها اللافح وذاقوا امرّ العيش بسبب خلوها من الماء والمسكن وسائر مرافق العيش .

إن الإيضاحات التي بُسطت حتى الآن تكوّن فكرة قريبة من الصحة في حالة البلاد العربية في العصور الجيولوجية السحيقة . على أنهُ من المفيد أن نسأل عن التاريخ الذي ارتدت فيه هاتيك البلاد منظرها الحالي القاحل الموحش . وقد أجاب المستشرق الطلياني كايتاني في تاريخه في الاسلام عن ذلك قال : « لقد أخذت جزيرة العرب تتقهقر وتفقد رطوبتها واعتدال جوّها وأسباب العيش فيها منذ أكثر من أربعة عشر الف سنة . إذ ان هذا التقهقر كان بطيئاً جدًّا ، فان تأثيره في حياة السكان لم يكن فجائيًّا بل كان مطرداً تبعاً للقلة في الأمطار وارتفاع حرارة الجو . على أن ازدحام السكان لم يكن هنالك كما هي الحال في البلاد المزدحمة الحالية ، وكان الناس يعيشون من صيد السمك ويسكنون متفرقين متباعدين ، ولذلك يمكن أن يقال إن سكان الجزيرة ظلوا على حياتهم هذه إلى أن أخذوا يشعرون بقلة الزاد والمحصول بسبب ندرة الأمطار ، فانصرفوا إلى تدجين الحيوانات البرية ليدفعوا عن أنفسهم غائلة الجوع . ولما اشتدت الحالة بهم ونفد صبرهم من الفاقة والجوع والعطش ارتحلوا الى بلاد أخصب تربة وأجود جوًّا وأكثر أمطاراً . وهكذا بدأت أولى هجراتهم التي حدثت غير مرة . فان الآثار التي استخرجت من جوف الأرض ما بين النهرين الفرات ودجلة تبرهن على أن أولى الهجرات السامية قد بدأت قبل نحو خمسة آلاف من السنين من ميلاد

المسيح . على أن هـذه الاكتشافات يجب أن لا تنفي فكرة وقوع هجرات سامية أخرى قبل هذا التاريخ . والأسباب الجوية المبحوث عنها والتي حملت الأقوام السامية على هجرة موطنهم الأول وتركه إلى وطن أحن منهُ جوًّا ورطوبة هي نفسها التي حملت أقواماً أخر على الهجرة العامة . فالجفاف الذي طرأ على وادي تريم قرب بحيرة (لوب نور) قد حمل الصينيين على هجر مساكنهم هناك في السنين الأخيرة وعلى ارتحالهم تدريجيًّا الى أعالي وادي (هونغ هو) في مقاطعة شانسي ومنها إلى البلاد الصينية الأصلية

وإذ نقرأ تفاصيل هذه الهجرة الصينية لا بدّ لنا من ان نسجّل الهجرات الآرية التي بدأت قبل نحو ألفي سنة من التاريخ المسيحي على خطين مختلفين . ويبدأ خط الهجرة الآرية الأول من السهول المحيطة ببحر قزوين مارًّا بجبال أفغانستان شرقاً فجنوباً إلى أن ينتهي ببلاد الهند الشمالية ذات الأنهر الخمسة، وهي ما تسمى الآن بمقاطعة بنجاب . والخط الثاني الذي اختاره الآريون في هجرتهم سار نحو الغرب مارًّا من البلاد الواقعة شمالي بحري قزوين والأسود ، وقد استقرّ أولئك الآريون المهاجرون مدة من الزمن في جنوب روسية ثم انتشروا منها في سائر أقسام القارة الأوربية .

• • •

وبعد بسط ما تقـدَّم صار من الممكن أن نقول كلمة صحيحة في الوطن السامي الأول وهي تتلخص في أن الأقوام السامية الأولى كانوا قد قاموا بهجرتهم في موطنهم الأول في بلاد العرب إلى البلاد الواقعة في شمال شرق جزيرتهم ، وهذا ينقض رأي المستشرق الطلياني جويدي القائل بأن الوطن السامي الأول كان في بلاد ما بين النهرين . ولقد ذهب جويدي هذا المذهب لأنهُ أهمل دراسة العوامل الجيولوجية التي ذكرنا خلاصتها ولم يتأمل التطورات التي طرأت على البلاد بسبب الجفاف البطيء واشتداد حرارة الجو ونضوب المياه الجارية ، واكتفى بأن الجزيرة العربية بسهولهـا القاحلة وجفافها المهلك لا يمكن أن تكون موطناً للساميين . ولم يتنبه جويدي حين دافع عن هذا الرأي إلى أن بلاد ما بين النهرين كانت موطناً للسومريين حين باشر الساميون هجراتهم الأولى .

ومن المعلوم أن السومريين لا يمتون بأية صلة للساميين، بل هم كما قلنا سابقاً من الجنس المغولي سكان بلاد أورال والطاي القدماء .

وحين وضع جويدي رأيه المتقدم ذكره وصف الوطن السامي الأول فقال فيه : « إنه

صحراء منبسطة ليس فيها سوى تلال قليلة الارتفاع ولا تبعد كثيراً عن البحر وفيها أنهار غزيرة المياه وأراض مغطاة بحشائش كثيفة ترعاها قطعان الماشية، وقد استنبت الأهلون فيها بعض الحبوب التي ترويها أمطار غزيرة . وفي فصل الشتاء كانت حرارة الجو تنخفض كثيراً حتى إن الثلج كان يسقط عليها أحياناً » . هذه هي الأوصاف التي انتهى اليها جويدي ونفى بسببها الرأي القائل باعتبار الجزيرة موطناً أول للقبائل السامية لأن هذه الأوصاف ليست متوافرة الآن في صحارى الجزيرة، إلاَّ أنها تنطبق على حالة بلاد العرب حين ظهرت اللغة السامية، وهي من جملة الأدلة على ان الموطن الأول للساميين كان في جنوب جزيرة العرب لا في بلاد ما بين النهرين ، لأن الجزيرة حينما أخذت تفقد أحراجها الكثيفة في أسلوب تدريجي أخذ السكان - على ما يرى العلماء - يدجنون الحيوانات ويرعونها في السهول والتلال ويستنبتون بعض البقول والحبوب .

يقول جويدي إن جميع الساميين كانوا يعرفون الجمل ويسمونه بالأسماء المعروفة لديهم وكانوا يصيدون في البحر وفي الأنهر ويزرعون الحبوب ويحرثون الأرضين بواسطة حيوانات مدجنة ويقيمون الأجران لاخراج الحبوب من سنابلها . إلاَّ أنهم كانوا يجهلون صنع الخبز ، وقد زرعوا الكرمة وقطفوا أعنابها إلاَّ أنهم جهلوا صنع الخمر منها . وقد جاء ذكر كروم مدينة الطائف في الأحاديث النبوية . وكان زبيب الطائف يشحن إلى سورية وتستنبت الكرمة في وادي القرى أيضاً وفي بلاد اليمن . فاذا كانت الحال الآن كما ذكرنا فالأولى أن تكون المحصولات في الجزيرة أكثر تنويعاً وازدهاراً حين كان الجوّ معتدلاً والأمطار متواصلة أكثر منها الآن .

ويقول جويدي: « لو كان الساميون هاجروا للمرة الأولى من جزيرتهم إلى بلاد ما بين النهرين لكانوا سموا الصحارى الرملية التي اجتازوها بالأسماء المعروفة لدى سكان ما بين النهرين . وقد وجه هذا الاختلاف في التسمية أنظار المؤرخين، ولاحظوا ان سكان الجنوب كانوا يفهمون من كلمة الصحارى الرملية سهولاً قاحلة لا نبت فيها ولا حيوان . أما أهل الشمال الساميون وهم الآشوريون والعبرانيون فيفهمون من كلمة الصحاري الرملية تلك السهول التي كانوا يربون فيها أغنامهم وإبلهم ».

• • •

هذا ما ساقه جويدي للبرهنة من الوجهة اللغوية على أن الموطن الأصلي السامي كان

بلاد ما بين النهرين . إلاَّ أن المستشرق الايطالي كايتاني يرى في هذا دليلاً آخر على بطلان ذلك الزعم، لأن الهجرة السامية الأولى نحو بلاد ما بين النهرين كانت وقعت قبل أن تصبح جزيرة العرب على ما هي عليه الآن من الجفاف المهلك والجوّ الحار ، وهم لم يكونوا يعرفون للصحارى الرملية ما ألفه أهل الجنوب من المعاني المخيفة، وقد وجدوا حين هجرتهم الأولى نحو الشمال سهولاً مماثلة لتلك التي غادروها في ديارهم الأولى وفيها العشب والحشائش التي كانت ترعاها قطعان الحيوانات المدجنة . وفي إبان الهجرة السامية الأولى نحو العراق لم تكن صحارى الجزيرة قد جفت نهائيًّا وانقرضت فيها معالم الحياة النباتية والحيوانية بل كان فيها بعض المراعي الصالحة لتربية المواشي وتكثيرها . وقد ظنَّ بعض العلماء أن الهجرة السامية الأولى كانت حول سنة (٥٠٠٠ ق . م .) وأن صحارى الجزيرة أضاعت نضارتها وانقلبت إلى رمال قاحلة مخيفة في نحو سنة ١٥٠٠ ق . م .

أما الناحية التي خرج منها الساميون الأولون في الجزيرة فلقد اختلف العلماء فيها فقال فريق منهم بأن الموطن الأصلي السامي كان في نواحي الحسا واليمامة . وقال العلامة الانكليزي هومل بأن موطن العبرانيين والآراميين الأصلي كان في نواحي البحرين واليمامة، ثم انتشروا منها في الشمال وفي الغرب .

وحين جاء الساميون إبان هجرتهم الأولى الى بلاد ما بين النهرين اشتبكوا بالسومريين ووقعت لهم وقائع دامية انتهت باستقرار الساميين ونشرهم عاداتهم ولغتهم بين سكان تلك البلاد الأصليين، وحين أصبح الساميون حكام ما بين النهرين أقبلوا على المدنية السومرية وتملأوا بها. وقد ذهب العلماء إلى القول بأن الاحتلال السامي الأول لم يبدأ بحركات عسكرية منظمة بل كان المهاجرون يأتون جماعات فينسلون إلى المراعي الخصبة طلباً للكلأ كما يفعل الآن قبائل نجد البدوية . وقد ظلّ الاحتلال السامي السلمي قائماً حتى أصبح المهاجرون يؤلفون كثرة ساحقة فانقلبوا على ساداتهم السومريين وتغلبوا عليهم وحلوا محلهم في الحكم . ويظن أن هذا الاحتلال الذي كان قد بدأ سلميًّا ثم انقلب إلى احتلال عسكري متغلب لم يتم ولم يتحقق إلاَّ في مدة ألف سنة على الاقل.

(يافا)

الدين والفلسفة

الشيخ محمد عبده والتوفيق بينهما *

لمحمد يوسف موسى

مهما يلحّ كلٌّ من رجال الدين ورجال الفلسفة في أن يعرف حدود الدين وحدود الفلسفة حتى لا يكون بينهما عدوان ، ومهما يكن شأن الذين نادوا بذلك من المفكرين المتقدمين ، فان هذا لم يراع دائماً ، بل كان أن اختلطت المباحث الدينية والمباحث الفلسفية ، وتعدى الفلاسفة ما كان يجب أن يلتزموه من حدود ، فزجوا بأنفسهم في ما كان قائماً من نزاع بين الفرق الدينية المختلفة ، وبثوا بصنيعهم هذا كثيراً من فلسفة اليونان التي نالت إعجابهم واستأثرت بألبابهم ، وكان بسبب ذلك ما نعرف من تألب الفقهاء والمتكلمين واضطهادهم لهم وشنهم الحرب عليهم وعلى مؤلفاتهم ، التي جمعت الحسن وغير الحسن ، ما دام أصحابها خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً !

لكن الشيخ محمد عبده يلاحظ بحق أن المتكلمين غلوا في نقد الفلاسفة ، واشتدوا في الحملة عليهم وعلى آرائهم ، « فسقطت منزلتهم من النفوس ونبذتهم العامة ولم تحفل بهم الخاصة ، وذهب الزمان بما كان ينتظر العالم الاسلامي من سعيهم » (١) . وكان رجال الدين هؤلاء ينبعثون في هذه الحملة — كما يقول — ببواعث من الحقد والحسد الذي يأكل القلوب ، أو الجهل بالدين ومبادئه واصوله ومقدماته ، مما يجعلهم يرون في كل نظر عقلي خروجاً على الدين .

ولهذا — كما ذكرنا من قبل — لا نرى مثل ذلك الأذى يقع إلاّ على قاضي قضاة كابن رشد ، أو وزير أو جليس خليفة أو ذي نفوذ عظيم بين العامة . ولهذا أيضاً لم يقف الجهل ببعض من يزعمون أنهم رجال الدين وأهل الحفاظ عنه عند رمي الفلاسفة ومن إليهم بالكفر ، « بل عدا بهم الجهل على أئمة الدين وخدمة السنة والكتاب » (٢)

وتتبين نزعة الشيخ واضحة إلى التوفيق بين الدين والفلسفة ، بعد ما قدمنا لهُ من أصول وضعها لبيان العلاقة بين الوحي والعقل ، من هذا الأصل الآخر الذي أراد بهِ أن

---

* انظر مقتطف يونيو الماضي ص ١٢ (١) رسالة التوحيد ص ٢١ (٢) الاسلام والنصرانية ص ١٥٦

ينأى الناس بأنفسهم وبإخوانهم في الدين عن رميهم بالكفر لأوهى الأسباب ، إذ قرَّر به أنه « إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الايمان من وجه واحد ، حُمل على الايمان ولا يجوز حمله على الكفر » (١)

وزاد على هذا في مؤلف آخر ، حيث أكد أنهُ لا يصح التكفير باعتقاد أحد طرفي النفي والاثبات في المسائل الخلافية في الدين ، ما عدا مسألة الألوهية والنبوَّة والمعاد ، فإن إنكار شيء من هذه الأمور الثلاثة كفر لأنها مبنى جميع الديانات ، « وأما ما سواها من التفاصيل فلا بأس باعتقاد أحد طرفيه إن كان بالبرهان ، والنقليات مؤولات » (٢) وليس وراء هذا تسامح وسعة صدر ، وتمكينٌ للنظر الفلسفي ، وتوفيقٌ له مع الدين !

هذا ، ولم يكتف الامام الشيخ محمد عبده بأصول يقررها ، وصلات عامة بين الدين والفلسفة يبيّنها ويطلب رعايتها ، بل تناول أهم المسائل التي ثار من أجلها الخلاف بين رجال الدين ورجال الفلسفة، وأعمل فيها فكره وصدع فيها برأيه، وانتهى منها إلى ما يؤكد في رأيه الوفاق بين الدين والفلسفة. ومن الخير أن نستعرض بعض هذه المسائل في إيجاز، ليكون القول عن بينة، ولنعلم يقيناً كم كان الشيخ محافظاً على ما سبق أن قرَّر من مبادئ وأصول :

(١) نذكر أولاً مسألة الأسباب والمسببات ، تلك المسألة التي حمي فيها الخلاف بين المعسكرين ، والتي بذل حجة الاسلام الغزالي جهداً كبيراً عنيفاً ليدل على خطأ الفلاسفة في ما ذهبوا اليه من وجود رابطة ضرورية بين ما يجري في العالم من أمر وبين سببه الذي يُعتقد أنهُ كان لأجله .

الفلاسفة ومن إليهم من العقليين يرون هذا الارتباط بين الشيء وسببهُ ضروريًّا ، وإلاَّ لارتفعت الحكمة الموجودة في الصانع وفي المخلوقات ، وهذا إبطال للعقل . أما المتكلمون الأشاعرة — فيرون كما يقول الغزالي — أن « الاقتران بين ما يُعتقد في العادة سبباً وما يُعتقد مسبباً ليس ضروريًّا . . . ، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر ، مثل الري والشرب ، والشبع والأكل ، والاحتراق ولقاء النار . . . وإن اقترانهما إنما هو لما سبق من تقدير الله سبحانه لخلقها على التساوق ، لا لكونه ضروريًّا في نفسه » (٣)

والفلاسفة – ومن شيوخهم ابن رشد – يرون أن العقل ليس إلاَّ إدراك الموجودات بأسبابها ، « فمن رفع الأسباب فقد رفع العقل . وصناعة المنطق تضع وضعاً أن ههنا أسباباً

---

(١) الاسلام والنصرانية ص ٥٧ (٢) الحاشية ص ١٠٧، وقريب من هذا ما ذكره ص ٦٠

(٣) تهافت الفلاسفة ، نشر الاب بويج، ص ٢٧٧ — ٢٧٨

ومسببات ، وأن المعرفة بتلك الأسباب لا تكون على التمام إلاَّ بمعرفة أسبابها ، فرفْع هذه الأشياء مبطل للعلم ورفْع لهُ » (١)

هكذا ذهب المتكلمون ، وهكذا ذهب الفلاسفة ، في هذه المشكلة ، أي أن كلاًّ من الفريقين كان في ناحية . فجاء الإمام يقرر ، في رده على فرح أنطون صاحب مجلة الجامعة ، أنه « ليس من الممكن لمسلم أن يذهب إلى ارتفاع ما بين حوادث الكون من الترتيب في السببية والمسبّبيّة إلاَّ إذا كفر بدينه قبل أن يكفر بعقله » (٢) وهذا منه — كما نرى — انحياز الى رأي المعتزلة والفلاسفة ، مهما قيل لتقريبه به من رأي الأشاعرة بأننا لا نقطع العلاقة بين الأسباب الظاهرة ومسبباتها ، لأن الأسباب « لا بدّ منها في صدور الأثر إلا أن الذي يعطيها الوجود عند استكمالها هو الخالق » (٣)

(ب) وفي مسألة قِدم العالم (٤) نراه يحقق أقوال الطرفين ، ويبين أن القول بالقدم الزماني الذي ذهب اليهِ الفلاسفة لا يستلزم القول بالقدم الذاتي إلاَّ على ما فهمهُ الأقدمون ، ثم يذكر أنهُ « لا ضير أن ينتحل الناظر أحد الرأيين — رأي المتكلمين ورأي الفلاسفة — إذا سلم برهانه من التقليد» (٥) ومعنى هذا بوضوح أنهُ لا كفر بالذهاب مذهب الفلاسفة . بل إنهُ يصرح بذلك إذ يذكر في آخر المسألة أن القائلين بالقدم لم يكفروا بمذهبهم هذا أو ينكروا بهِ ضروريًّا من الدين ، وإنما هم اجتهدوا وأخطأوا ، فهم مؤمنون مرضيون عند الله تعالى ، إذ لا يكلف الله نفساً إلاَّ وسعها (٦) .

ويتصل بهذا مشكلة صدور الموجودات عن الله تعالى : بعضها بغير واسطة وبعضها بواسطة من موجود آخر سبق وجوده كما يقول الفلاسفة ، أو كلها بلا واسطة مطلقاً كما يرى المتكلمون ، حتى لا نوهم لغيره من خلقه مشاركة في شيء من الأشياء . في هذه المشكلة يقول توفيقاً بين الرأيين : « فتحقيق مذهب الشيخ الأشعري يتحد مع تحقيق مذهب الحكماء» (٧) ما دام الكل متفقاً على أن كل خلق الله في حاجة إليهِ في وجوده ، سواء أكان وجوده عنهُ بطريق مباشر ، أم كان بواسطة غيره من المعلولات السابقة عليه وجوداً . وإذاً « فلا مخالفة بين القولين بوجهٍ من الوجوه ، إلاَّ ما كان من تعبير لفظي لا يعتد بهِ في الاعتقاديات » (٨) وإذاً فالذين يكفرون الفلاسفة لهذا على خطأ وضلال ، إذ « يدَّعون السنة وهم ناصرو البدعة ، وأي بدعة أكبر من تكفير من يدَّعون الايمان بما جاء بهِ محمد بعضهم لبعض بدون استناد

---

(١) تهافت التهافت ، الطبعة نفسها ، ص ٥٢٢ (٢) ابن رشد وفلسفته للاستاذ فرح انطون ص ٩١
(٣) المصدر نفسه ص ٩٠ (٤) هذه المسألة ومسألتا علم الله والبعث بالروح فقط هي ما كفر بها الغزالي الفلاسفة
(٥) الحاشية ص ٥٧ (٦) المرجع نفسه ص ٦٠ (٧) المرجع ص ٧٧ (٨) المرجع نفسه ص ٧٨

لا إلى كتاب ولا إلى سنة »^(١) ولعمري هذا حق كل حق .

(ج) وفي مسألة علم الله تعالى ، وأنهُ يتناول الكليات والجزئيات من الأمور المختلفة كما يرى المتكلمون ، أو الأمور الكلية فقط كما يرى الفلاسفة. في هذه المسألة يرى الشيخ أن طريق علمنا بالأشياء بتخيلها وانعكاس صورها على آلة الادراك لا يناسب الله تعالى ، لأن هذا التخيل والانعكاس لا يكونان إلاَّ بعد حدوثها في الزمان، أمراً أمراً أو جزئيـاً جزئيـاً. أما اللائق بالله وكمال قدرته فهو إدراك الأشياء كلها حتى ما كان جزئيـاً منها بطريق التعقل لا التخيل على نحو كلي — أي بعلم أسبابها الكلية — كما تعلم الذات ذاتها ، وهذا ما يسمى في اصطلاح الحكماء والفلاسفة بعلم الله بالكليات دون الجزئيات . فالاختلاف إذاً في نحو الإدراك من كونه كليـاً أو جزئيـاً ، لا في المدرَك بفتح الراء ، « وعلى هذا لا يستحقون التكفير ، فإنهم قد أثبتوا علم الله بجميع الكليات والجزئيات ، غايته على وجه غير الوجه الذي عليه علومنا ، وهذا لا ضير فيه »^(٢).

هذا لا ضير فيه حقـاً ، وبخاصة — كما يقول الشيخ — لأن الفلاسفة حين ذهبوا إلى ما ذهبوا إليهِ في هذه المسألة كانوا يرون أن هذا هو الكمال اللائق بالله تعالى ، فلا يستحقون التكفير ، إنما يستحقه من يذهب إلى رأي يعلم أنهُ نقص في جانب الله ومع هذا يعتقده ، والفلاسفة ليسوا بهذه المثابة . إنهم يعتقدون أن الله هو خالق كل شيء ، الكليات والجزئيات بإرادته على حسب علمه ، فكيف لا يعلم من خلق أو ما خلق وهو اللطيف الخبير !

(د) —وأخيراً ، فيما يتعلق بالبعث الجسماني الذي أنكره الفلاسفة لما قام في رأيهم من الأدلة على نفيه ، فقد رأى أن ليس من الممكن تأويل النصوص القرآنية الدالة عليه ، ولا من الحق أن يتركها ويأخذ بما استدل به الفلاسفة من الأدلة النظرية . لهذا وذاك نجده يؤكد أن إعادة الأجسام التي تعلقت الأرواح بها في الدنيا أمر يجب اعتقاده شرعاً ويكفر منكره ، وكل ما يمكن أن نتأول فيه هو كيفية تلك اللذائذ والآلام الجسمية من غير أن نخشى الوقوع في الكفر ونحوه^(٣) . وهذا الرأي منهُ يدلنا على أنهُ قد يعتد بالنصوص الدينية أكثر مما يعتد بالعقل ونظره .

وبعد ، فقد طال الحديث طويلاً في ما كنا نقدر في بيان موقف الأستاذ الشيخ محمد عبده من الدين والفلسفة ، ومنهُ يتبين لنا كم كانت سعة صـدره ، وكم كان ينعي على تكفير الفلاسفة في غير ما يجب التكفير فيهِ ، وكيف كان يعمل على أن يتعاون الوحي والعقل أو الدين والعلم والفلسفة لخير الإنسان والإنسانية كلها !

---

(١) الحاشية ص ٧٨ (٢) المرجع نفسه ص ١١٣ (٣) المرجع نفسه ص ١٩٧

المطالب الخلقية بعد الحرب (*)

وهل في وسع التربية تحقيقها ؟

للدكتور تشارلس وطسن

يتساءلون عن أهم ما يفتقر اليهِ العالم بعد الحرب ، فيذهبون في الاجابة كل مذهب . يجيب بعضهم أنهُ المطاط ، ويرى فريق أنه الفولاذ ، ويزعم آخرون أنه السفن لتيسير التجارة والنقل ، ويذهب قوم الى أنهُ مدّ الأماكن التي أصابها ما أصابها من البوار والتخريب بالأغذية . كما يؤكد غيرهم أنهُ العقاقير والفيتامينات . أما أنا فاسمحوا لي أن أتعالى بكم الى أفق دون مستواه النفعيات ، وأقول إن أهم ما نحتاج اليهِ بعد الحرب هو الأخلاق الكريمة . ويمكن الحكم على جسامة حاجتنا إلى هذه بما أصاب المقاييس الأخلاقية في هذه الأيام من التدهور والانحلال .

ولنلق أولاً نظرة إلى الأمم المعادية . لقد توسل هؤلاء في خلال الثلاثين السنة الماضية بكل وسيلة مستطاعة أن يشربوا مواطنيهم ذلك المبدأ الفاسد من أساسهِ ، ألا وهو مبدأ الحق للقوة . فلم يشعلوا نار هذه الحرب إلاَّ لاخراجهِ من حيز القول إلى حيز الفعل ، فنهجوا في غزواتهم المطردة لشتى البلدان سبل النهب : والسلب ، والسطو ، والسخرة ، والطغيان ، والتقتيل . ولقد تناول تلقين هذه المبادئ نيفاً وأربعين مليوناً من الأنفس في ايطالية وثمانين مليوناً في ألمانية وحدها . وأنى لهذه الملايين أن ترعوي عما تغلغل في نفوسها من الإثم والعدوان ، فتنضم إلى حظيرة عالم جديد يخفق فوق نظامه لواء الخير ؟

أضف إلى سكان الأمم المعادية تلك الملايين من الأنفس في الأمم التي أخضعتها المانية في عهد قوتها فاستهواها ما نالها من ظفر وأغراها ما أحرزته من بطش ، وأخذت ترتاب في مبادئ العدالة والحق ، ووفاء العهود ، والرحمة ، والصلاح ، وتزعم : أن هذه ليست إلا تقاليد يلوح لنا أنها بالية معيبة ، نسج عليها الدهر خيوط العنكبوت . فما لنا لا ننتظم في سلك هذا النظام الوثني الجديد ، نظام الحديد والدم ؟ ولعلنا كنا نستطيع أن نعزي أنفسنا

---

* ترجمة الخطاب الذي ألقي في الحفلة السنوية لتوزيع الاجازات العلمية للجامعة الاميركية بالقاهرة يوم ٨ يونيو ١٩٤٤

بأن نصر الامم المتحالفة كفيل باعادة الأمور إلى نصابها ، فيما لو كانت هذه المبادئ المحطمة مقصورة على الأمم المعادية .

ولكن مما يؤسف لهُ أن في خلال هذه الحملة التي نحملها على هذا الشر المنظم ، قد أصاب الخير أيضاً ما يصيب الرجل الآمن المطمئن من مقاومة اللصوص وقطّاع الطرق . وهل يسلم من يشترك في غسل الاقذار ، من التلوث بالأوحال ؟ أو نعجب إذا رأينا المبادئ الخلقية في الامم المتحالفة نفسها يهبط مستواها من جراء الشئون الحربية ؟

تأملوا في عوامل التجربة والإغراء التي تكتنف اليوم القوات المتحاربة في جميع الامم . وانظروا كيف أن جيلاً كاملاً من شبابها قد مزق الروابط الاجتماعية وانسلخ من تلك المبادئ التي كانت في الأحوال العادية تكبح جماحه وتهديه إلى سواء السبيل . انظروا كيف أن جحافل هذا الشباب قد حرمت عيوناً كانت بالأمس في الأوطان ترعاها وتتسامى بها إلى المكارم ، فاذا بها اليوم طعمة لشرك الاغراء الجنسي . ففي محطات السكك الحديدية تعرض عليها للبيع صور وكتب من أحطّ ما يرى وما يقرأ . وفي حالة من ثورة النفس تستهوي الجندي الخمر ، فيخضع لسلطانها ، أملاً في أن يسكر بنشوتها لتخفف عنه ألم الوحدة ، وتهدئ أعصابه الثائرة

ولست أريد هنا أن أنتقص من الجهود المنظمة التي تبذل في حماية الجنود من هذه المساوئ وسواها ، بكيفية لم يسبق لها في تاريخ الحروب مثيل ، وإنما أردت أن أبين أن هبوط المستوى الخلقي بسبب الحرب كان أمراً لا مفرّ منهُ ، وهذا أمر لا ينكره كل من كان على بينة من بواطن الأمور .

وهناك أمر آخر ينبغي أن نضيفهُ إلى هذه الصورة التي رسمناها لكم ، وهو أن هبوط المستوى الخلقي لم يكن مقصوراً على القوات المتحاربة ، وإنما شمل كذلك المدنيين ، والأدلة على هذا تجل عن الحصر . أليست الأسر مفككة ، والبيوت مصدعة ؟ فهذا الزوج والأب جندي في الجيش ، وهذه الزوجة والأم لبت نداء الوطن فاشتغلت في مصانع الذخيرة وغيرها مما قضت به الحرب ، وهؤلاء البنون والبنات يتركون بغير رقيب .

كذلك دور الأعمال قد تأثرت . فهناك إخفاء السلع وتخزينها . وهناك الأرباح الاستثنائية الفاحشة . وهناك الوصايا العشر ، قد استبدلت الوصية الثامنة منها وهي « لا تسرق » بقولهم « لا تسرق قليلاً » . وها نحن أولاء في مصر ، ولسنا من الأمم المتحاربة ، نحس بهذه الموجة العنيفة القاسية من العبث بالقانون والاستهتار بالمبادئ ، فنقرأ انباء الفضائح المنكرة في الاتجار بالمخدرات ، وسرقة الأدوية والعقاقير من المستشفيات . وكذلك الأمر في أميركة ، فعندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها طغت على البلاد موجة

من أشد السرقات جرأة ، ودبَّ فيها وباء خطف الأطفال ، وقيام عصابات تفرض الضرائب في المدن الكبرى على أصحاب المحال والمخازن التجارية .

وكلما طالت الحرب ، زادت الأخلاق تدهوراً . ولقد صدق البارون « فون هوجل » حينما قال إن حروب نابوليون — وقد طال أمدها — قد تأثرت بسببها الحياة الأوربية فرجعت القهقرى بما يقرب من ثلاثين عاماً ، ولعلَّ الدليل على هذا أن انجلترة بعد معركة واترلو لم تستطع التصديق على صك الاصلاح ، إلاَّ بعد سبعة عشر عاماً. وأن فرنسة لم تربح معركتها الأولى ضد آل بوربون الاَّ بعد خمسة عشر عاماً .

أجل ، إننا إزاء هذا التدهور اليوم ، بسبب الحرب الحالية ، لفي حاجة ملحة إلى ذلك المستوى الخلقي الرفيع الذي نعده أساس الجماعات المنظمة . بيد أن المسألة أشد خطراً مما يبدو لأول وهلة. وذلك لأن مستوى الأخلاق، وإن لم يك كافياً لمطالب العالم قبل الحرب أو يوشك أن يكون كذلك، ولم ترع حرمته على الوجه المطلوب، لن يعود كافياً لسد حاجات العالم بعد الحرب.

من العبث أن نخدع أنفسنا فنظن أن أمة من الأمم بعد الحرب — مصر كانت أو اميركة، أو أي بلد من بلدان أوربة او آسية — تستطيع أن تعود نظم الحياة فيها، الى ما كانت عليه قبل الحرب . إن مصر بعد الحرب لن تكون مصر قبلها أبداً . فهذه الملايين من الجحافل التي تهافتت عليها من انجلترة واسترالية ونيوزيلندة وجنوب إفريقية وهندستان وأميركة هل كان قدومها مجرد زيارة لم تترك آثاراً، سيئة كانت أو حسنة ؟ على النقيض من ذلك قد تأثرت بها أقصى القرى، في الآراء الاجتماعية، والوسائل المعيشية، والمعارف العامة العالمية. هيهات أن تقصر الحياة فيها على ما كانت عليه من قبل . لقد اتسع الأفق أمامها فامتدت علاقاتها ، لا بالعالم العربي وحده ، بل بالعالم أجمع . وما يقال عن مصر يقال عن سواها من الأمم، ولربما كانت أميركة في مقدمتها ، وقد خرجت أخيراً عن عزلتها لتتصل بالعالم الخارجي .

فيجمل بنا إزاء هذه الحالة أن نزن بميزان العقل ، نتائج ما نحن قادمون عليه من حياة جديدة واسعة الأفق ، وما تتطلبه من خلق أعلى مقياساً وأسمى قوة ، في ظروف وملابسات أشد خطراً مما كانت . ولننتقل بكم الآن من العام إلى الخاص .

أول ما يتبادر إلى الذهن مما نتوقع حدوثه بعد الحرب ، قيام هيئة عالمية تكون أقوى أثراً وأسمى شأناً مما كانت عليه عصبة الأمم قبل الحرب . فما الشرط الأساسي الذي تتطلبه هذه الهيئة ؟ وهل ثمة ما يفوق العنصر الأخلاقي بين الأمم توفيراً لهذا الشرط ؟ وإلاَّ فلمَ أخفقت العصبة في قرارات كان العالم أشد حاجة إلى البت فيها ؟ ألم يكن السبب أنهُ بالرغم من التأكيدات والعبارات القوية المحبوكة التي صبغت بها مبادىء الولاء للعصبة ، اتضح أن

دولة معينة من أعضائها كانت تعقد اتفاقات سرية منافية لهذه المبادئ ؟ ألم يكن الاخلال بشرف العهود والمواثيق بين الأمم سبباً في انحلال العصبة وتفكك أوصالها ؟ إذاً فالعصبة الجديدة لن تقوم لها قائمة ما لم تكن دعامتها من الصراحة أقوى ، ورائدها من الأمانة والصدق أسمى من سابقتها . وينبغي ألاَّ تكون كلمة « دبلوماسي » أو « دبلوماسية » بعد اليوم ، مرادفة لمعنى الخديعة ، والمماطلة ، والختل ، والمعاملة ذات الوجهين .

والدعوة للخلق الكريم ، وحسن المعاملة بين الانسان والانسان معروفة منذ القدم . فقد قرأنا في القرآن الكريم للمسلمين : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوَّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيًّا أو فقيراً فالله أولى بهما » (الآية ١٣٤ سورة النساء) وقرأنا في التوراة المقدسة للمسيحيين واليهود عن التكلم بالصدق في قلبه . . . يحلف شاهداً على نفسه وإن كان في ذلك وبالٌ عليه .

يتبين من هذا أن الصدق وحفظ العهود بين الأفراد قد أمر به جميع الأديان على السواء . على أن تطبيق هذا المقياس الخلقي بعد الحرب ينبغي أن يشمل الأمم والأفراد . ذلك لأن المقاييس الدبلوماسية الدولية المعمول بها الآن لم تعد كافية ، والعالم بعد اليوم في شديد الحاجة إلى السمو بها ، وإلاَّ كان لابدّ لأولادنا أن يخوضوا غمار حرب عالمية أخرى ، لاقدَّر الله .

وما سردناه من الأدلة في شأن المستوى الخلقي بين الأمم ، يمكن تطبيقه على العلاقات التجارية والحياة الاجتماعية والاقتصادية . ولكني لا أحاول الخوض في هذا الموضوع ، لأنتقل بكم إلى الاجابة عن هذا السؤال ، ألا وهو ما العلاقة بين هذا كله وبين التربية يا ترى ؟

وإذا ما تحدَّثنا عن التربية . فاننا نصطدم برأيين ، رأي يعنى بالمعرفة البحتة ، وآخر يعنى بالمعرفة والخلق ، والجامعة الاميركية بالقاهرة من هذا الرأي الأخير ، ويبلغ اعتزازنا بهذا المبدأ ، أننا لو خيرنا بين الأمرين ، لآثرنا أن نترك الفرد في غياهب الجهل ، على أن نزوّده بالعلم مجرداً عن المبادئ الخلقية . أليس هذا أقل خطراً على المجتمع ؟ فهاكم رجال العصابات ولصوص البنوك ، هل هم جهلاء ؟ كلاَّ ، إنهم كثيراً ما يكونون على جانب عظيم من العلم والمعارف الفنية ، ولكن ينقصهم الخلق . ولذا فاننا نقول لوالدي الطلبة وأولياء أمورهم : « إن جامعتنا ليست مكتب استعلامات ، ولكنها معهد ، للمبادئ الخلقية فيه أسمى منزلة بجانب المعرفة » .

ولكن هل في مقدور التربية أن تبث في نفوس النشء هذا الخلق ؟ وإذا كان الأمر كذلك فما الوسيلة ؟ لنعترف أولاً بأن البيت أبعد أثراً فيما يتعلق بهذه المسألة من المدرسة . فقلما تستطيع المدرسة أن تفعل شيئاً لشاب نشأ في بيت هبط مستواه الخلقي ،

فتفشى فيه الخداع والكذب ، بين الزوج وزوجه ، وبين الوالد وأولاده ، وبين السيد وخدمه ، وبين أفراد الأسرة ومعشر أصدقائهم . بيد أن البيت إذا تعاون والمدرسة ، أمكن الوصول إلى نتائج محمودة . ولكن كيف ؟

أجيب عن ذلك بقولي إن التربية الخلقية أصبحت في السنوات الأخيرة علماً . لقد أوسعها المربون درساً وبحثاً . ووضعوا لها اختبارات ومقاييس . وفي معهدنا هذا نحاول أن ننتفع بنتائج هذه البحوث التي كشفت النقاب عن حقائق غريبة . من ذلك أن مجرد استذكار الحكم الأخلاقية وحفظ المبادئ الدينية عن ظهر قلب ، طريقة تكاد تكون عديمة الفائدة قطعيًّا . ومع ذلك فقد كانت ولا تزال الطريقة الشائعة في بث المبادئ الأخلاقية وتربية النشء عليها . فهل إذا حفظ الفتى الوصايا العشر أو أمثال سليمان ، أو غير ذلك من الحكم ، يمتنع عن ارتكاب الرذائل ؟ تدل التجارب والأبحاث أن الجواب عن ذلك كان سلبياً ، قد تكون هذه الطريقة ذات فائدة باعتبارها وسيلة من وسائل التعبير لمن سمت اخلاقه ولكنها تكاد تكون عديمة النفع باعتبارها أداة رادعة . إن المسألة تتطلب التعمق إلى ما هو أبعد من مجرد الاستذكار

من أشد العوامل أثراً في التربية الخلقية ، البيئة التي ينشأ فيها الطالب . فما الجو المدرسي الذي ينشأ فيه ابنك ؟ أجو يتفشى فيه الغش في حجرة الدراسة ، وفي ساحة اللعب ؟ أم جو يسود فيه الصدق والرجولة السليمة الكاملة ، والتفكير الذي لا تشوبهُ شائبة ، والروح الرياضية العالية ؟

وهناك عامل آخر له أثر عظيم في حياة الطالب . وهو اتصاله برؤساء وزعماء ذوي مبادئ أخلاقية سامية . وهذا هو السر في جماعات الكشافة . فالكشاف الزعيم حقًّا هو سر نجاح الجماعة التي يقودها . وقد صدق من قال : إن الاخلاق تكتسب ولا تلقن ، أجل تدرك بالاتصال بمن نبلت أخلاقهم .

ولما كانت جامعتنا تعلم أنهُ يغلب على أساتذتها ، من أصحاب الكراسي ، أن يترفعوا ، أو يكونوا بمعزل عن الطلبة ، لما بينهم من الفوارق في السن ، فانها تستدعي على الدوام من أميركة شباناً ممتازين ، كما تتخير نخبة من شباب المصريين للتدريس ، يكونون أكثر ميلاً للاختلاط بالطلبة من الأساتذة الكبار . وذلك في الألعاب الرياضية وفي نواحي النشاط على اختلاف أنواعها . بهذا التأثير الشخصي من أفاضل الأميركيين والمصريين نستطيع أن نكوّن في النشء خلقاً سليماً .

ويوجد عامل أساسي آخر له أثر كبير في تكوين الخلق ، ألا وهو أن ييسر للطالب أن يبت في الأمور بنفسه ، ويشجّع على تقرير الأشياء بذاته . وقد سبق القول أنهُ يستدل من مبادئ التربية الحديثة أن استذكار الحكم الخلقية قليل الجدوى . فلمَ ذلك ؟ السبب أن

الفرد لم يكن له نصيب في وضع هذه الحكم . وإنما هو قد لقنها تلقيناً بغير دليل مقنع ترتاح اليه نفسه ، أو بتعبير آخر إنها فرضت عليهِ فرضاً .

وأرجو المعذرة إذا عدت بكم الى اختبار شخصي ، أراني مديناً بهِ إلى والدي الذي لاقى مثواه منذ زمن ليس بالقريب . فقد توجهت اليهِ مرة بهذا السؤال : « أبي أأفعل هذا أم هذا ؟ » فأبى عليَّ الاجابة وترك لي الحكم قائلاً : « أيهما الصواب في نظرك يا شارل ؟ » . وفي خلال السنوات التي قضيتها من عمري بعد ذلك إلى يومنا هذا ، تحملت تبعة البت في أموري بنفسي ، سواء أكنت وحدي أم مع الغير ، وسواء أكان ذلك ليلاً أم نهاراً ، وسواء أكنت مع الأغلبية أم مع الأقلية . أجل أيها الأصدقاء ، إن المبادئ الأخلاقية لا يمكن أن تفرض فرضاً على الانسان ، بل ينبغي أن تكون ثمرة الاختبار الحر ، والبت في الأمور ، على أنه وإن كان ينبغي أنْ يكون التاثير بالارشاد والنصح ، فانهُ في أساسهِ يجب أن يتصل بالحياة الواقعية كما هي ، وأن يكون من عمل الطالب نفسه .

وأخيراً دعوني أؤكد لكم ما هناك من العلاقة الوثيقة بين الخلق والدين . إن الدين ، أيًّا كان ، يصلح أن يكون أساساً للمستوى الخلقي . إن الايمان بالله تعالى ، المهيمن على أخلاق الكون ، والاعتقاد بالحياة الأخرى ، هما الحصن المنيع الذي تشاد عليه فكرة الخلق . قال مرة سير روبرت سيسل : صدقوني إنهُ ليس من الصواب أن تثقوا برجل يقول إنهُ لا يعتقد بالله ولا الحياة الآخرة . ومن حسن الحظ أن الأديان الثلاثة التي تدين بها الأقطار المجاورة لنا — الاسلام والمسيحية واليهودية — تؤمن بالله وبالحياة الأخرى ، وبذا تصلح أن تتخذ أساساً وثيقاً للتربية الخلقية . وإن هذه الجامعة وإن كانت معهداً مسيحيًّا بطبيعتها ، فانها تشجع طلاَّبها على البحث في أديانهم ليستمد كل من دينه القوة والإرشاد . أضف إلى هذا أن الجامعة قامت بأكثر من ذلك وهي أنها طلبت إلى أحد أساتذتها ، وهو متبحر في اللغة العربية وملم بأحوال الشرق ، أن يقضي عاماً كاملاً في دراسة الآراء الدينية والخلقية في الشرق الأدنى ، حتى يقف على خير ما ينتفع به منها في تدريس علم الأخلاق . وكثيراً ما يستحثنا الغير على أن يكون معهدنا علميًّا بحتاً ، فنأبى ذلك لاعتقادنا أن الخلق والدين صنوان لا يفترقان

سيداتي ، سادتي — هذه هي بعض الطرق التي تقرّها التربية العلمية الحديثة لتكوين الخلق . وسواء تعلقت هذه الطرق بهذه الجامعة أو سواها ، فاننا نؤمل أن يستجيب الوالدون وأولياء الأمور وزعماء التربية في كل مكان لهذه المطالب الملحة التي تفتقر اليها الانسانية بعد الحرب ، حتى نتزوَّد بالعدة الكاملة ، لا لنصلح ما أفسدتهُ الحرب من الأخلاق فحسب ، بل لنشيد عالماً جديداً أسعد حالاً من عالمنا هذا .

من ملاحق كتاب « رسوم دار الخلافة »

المآصر فى بلاد الروم والاسلام

— ٥ —

لميخائيل عوّاد

(ج) مأصر عكة

كانت مدينة عكة تزهو بمأصرها وتفاخر بمناعة سلسلته ، وعلى يديها أضحت حصينة جدًّا لا سبيل اليها ، ولعلَّ البشّاري المقدسيّ خير من عني بوصفها تخليداً لذكرى جدّه أبي بكر البنّاء الذي ابتنى ميناء عكة ، إذْ كان يومئذٍ مهندساً بارعاً في الشام . ودونك وصف البشاري لميناء عكة ومأصرها : « عكة مدينة حصينة على البحر . . . ولم تكن على هذه الحصانة حتى زارها ابن طيلون (ابن طولون) ، وقد كان رأى صور ومنعتها واستدارة الحائط على مينائها ، فأحبَّ أن يتخذ لعكة مثل ذلك الميناء ، فجمع صنّاع الكورة وعرض عليهم ذلك ، فقيل : لا يهتدي أحد الى البناء في الماء في هذا الزمان ، ثم ذُكر له جدّنا أبو بكر البنّاء وقيل : إن كان عند أحدٍ علمُ هذا فعنده ، فكتب الى صاحبه على بيت المقدس حتى أنهضهُ اليه ، فلما صار اليه وذكر له ذلك ، قال : هذا أمرٌ هين ، عليَّ بفِلَق الجمّيز الغليظة ، فصفّها على وجه الماء بقدر الحصن البريّ ، وخيّط بعضها ببعض ، وجعل لها باباً من الغرب عظيماً ، ثم بنى عليها بالحجارة والشيد ، وجعل كلما بنى خمس دوامس ربطها بأعمدة غلاظ ليشتدَّ البناء ، وجُعلت الفِلَق كلما ثقلت نزلت ، حتى إذا علم أنها جلست على الرمل، تركها حولا كاملاً حتى أخذت قرارها ، ثم عاد فبنى من حيث ترك، كلما بلغ البناء إلى الحائط القديم داخله فيه وخيّطه به ، ثم جعل على الباب قنطرة ، فالمراكب في كل ليلة تدخل الميناء وتجرّ السلسلة مثل صور ... » (1) .

ثم جاءَ ياقوت الحموي (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ) فنبّه إلى مأصر عكة بقوله : « ... ثم عاد فبنى من حيث ترك ، وكلما بلغ البناءُ الى الحائط الذي قبله ، أدخله فيه وخيّطه به ، ثم

---

(١) أحسن التقاسيم (ص ١٦٢ — ١٦٣)

جعل على الباب قنطرة ، والمراكب كل ليلة تدخل البناء (صوابها الميناء) ، وتُجرّ السلسلة بينها وبين البحر الأعظم مثل صور ... » (١)

ويلاحظ من هذا ، أنّ ياقوتاً نقل كلامه عن البشّاريّ المقدسيّ .

وقد يكون البرج الذي أشار اليه القاضي بهاء الدين بن شدّاد (المتوفى سنة ٦٣٢ ﻫ) ، والمسمى بـ « برج الذبّان » هو الذي فيه قُفل المأصر (السلسلة) لميناء عكة ، فمن خبره أنهُ « لما كان الثاني والعشرين من شعبان جهّز العدوّ بُطساً (٢) متعدّدة لمحاصرة برج الذبّان ، وهو برج في وسط البحر مبني على الصخر على باب ميناء عكة يحرس بهِ الميناء ، ومتى عبره المركب أمن غايلة العدو ، فأراد العدو أخذه ليبقى الميناء بحكمه ويمنع الدخول اليه بشيء من البطس فتنقطع الميرة عن البلد ... » (٣) .

هذا وقد صرّح زكريا بن محمد بن محمود القزويني (المتوفى سنة ٦٨٢ ﻫ) أنه نقل قول البشاري المقدسي في صفة عكة ومينائها وسلسلتها (٤) .

أما ابن عبد الحق ، فانه لم يفته وصفها (٥) ، ولكن يستشف من خلال كلامه أنه مأخوذ من كلام ياقوت . وهذا أمر معروف عند الباحثين ، فان كتابه يعتبر مختصراً لمعجم البلدان ومستدركاً عليه في بعض الأحيان . ولهذا السبب ، لا حاجة بنا إلى إيراد ما كتبه هذا ، ولا إلى ما كتبه القزويني من قبله ، بعد أن تبين لنا أن أولهما نقل كلامه من معجم البلدان ، وثانيهما درج على خُطى البشاري المقدسي السالف الذكر .

(د) مأصر مدينة صور

أما المأصر الذي في ميناء صور فلا يقل خطراً وشأناً عن نظيره في باب الأبواب . وأقدم خبر وقفنا عليه بهذا الشأن ، ما رواه البشاري المقدسي نقلاً عن محمد بن حسن الشيباني (المتوفى سنة ١٨٧ ، وقيل ١٨٩ ﻫ) ، وذلك في معرض كلامه على صور . قال البشاري : « ... وصور مدينة حصينة على البحر ، بل فيه ، يدخل اليها من باب واحد على جسر واحد قد أحاط البحر بها ، ونصفها الداخل حيطان ثلاثة بلا أرض ، تدخل فيه المراكب كل ليلة

---

(١) معجم البلدان (٣ : ٧٠٨ ، مادة عكة) (٢) بطساً ، انظر « الذيل » في آخر هذا المقال (٣) النوادر السلطانية (٣ : ١٨٤) . وانظر ص ١١٨ ففيها كلام على برج الداوية الذي شيد لحفظ ميناء عكة
(٤) آثار البلاد وأخبار العباد (ص ١٤٨ طبعة وستنفلد في غوتنجن) (٥) مراصد الاطلاع (٢ : ٢٧١ — ٢٧٢)

ثم تجر السلسلة التي ذكرها محمد بن الحسن في كتاب الإكراه (١) . . . . » (٢)

وكان الرحالة الذائع الصيت ابن جبير الاندلسي (المتوفى سنة ٦١٤ هـ) قد زار مدينة صور في يوم الخميس الثالث عشر من جمادى الآخرة من سنة إحدى وثمانين وخمسمائة للهجرة وأقام بها أحد عشر يوماً ، فكتب لنا وصفاً رائعاً لمآصر هذه المدينة ومقابلته بالذي في عكة ، ودونك ما رواه : « صور مدينة يضرب بها المثل في الحصانة ، . . . وذلك أنها راجعة إلى بابين : أحدهما في البر والآخر في البحر وهو يحيط بها من جهة واحدة ، . . . وأما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ، وليس في البلاد البحرية أعجب وضعاً منها ، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ، ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص ، فالسفن تدخل تحت السور وترسي فيها ، وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج ، فلا مجال للمراكب إلاَّ عند إزالتها ، وعلى ذلك الباب حرَّاس وأمناء لا يدخل الداخل ولا يخرج إلاَّ على أعينهم ، فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوضع ، ولعكة مثلها في الوضع والصفة ، لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك ، وإنما ترسي خارجها ، والمراكب الصغار تدخل اليها ، فالصورية أكمل وأجمل وأحفل . . . » (٣)

ومن المرجح أن سلسلة صور لم يطل أمدها بعد المائة السابعة للهجرة ، كما أشار إلى ذلك القلقشندي (المتوفى سنة ٨٢١ هـ) الذي قال في صفتها : « وبناؤها (مدينة صور) من أعظم أبنية الدنيا ، وكانت من أحصن الحصون التي على ساحل البحر ، فلما فتحها المسلمون في سنة تسعين وستمائة مع عكة خربوها خوفاً أن يتحصن بها العدو ، ... ويقال إنها أقدم بلد بالساحل . . . قال الشريف الادريسي : « وكان بها مرسى يدخل اليه من تحت قنطرة عليها سلسلة تمنع المراكب من الدخول ...» (٤)

(هـ) مأصر المهدية

أما مأصر المهدية فقد وصفه ياقوت بما هذا نصهُ : « ... قال (أبو عبيد البكري) :

---

(١) ذكره الحاج خليفة (كشف الظنون ٥ : ٤٨ طبع لندن = ٢ : ٢٦٤ طبعة استانبول الاولى) ، فقال : « كتاب الاكراه للامام محمد بن حسن الشيباني المتوفى سنة ١٨٧ » — قلت : وذكر ابن خلكان وفاته في سنة ١٨٩ هـ انظر ترجمته في وفيات الاعيان (١ : ٦٤٧ — ٦٤٨ طبعة بولاق الاولى) (٢) أحسن التقاسيم (ص ١٦٣ — ١٦٤) . — وجاء في النسخة الاستانبولية لمخطوط أحسن التقاسيم ما هذا نصه :

« وانما تدخل المراكب هذا الحير وتجر السلسلة كي لا يعبر عليها الروم في الليل » .

(٣) رحلة ابن جبير (ص ٣٠٨ طبعة رايت) أو (ص ٣٠٤ — ٣٠٥ طبعة دي غويه) ، او (ص ٢٨٦ — ٢٨٧) طبع مطبعة السعادة بمصر) (٤) صبح الاعشى (٤ : ١٥٣)

ومرسى المهدية منقورة في حجر صلد ، تسع ثلاثين مركباً . على طرفي المرسى برجان بينهما سلسلة حديد ، فإذا أريد إدخال سفينة ، أرسل حرّاس البرجين أحد طرفي السلسلة حتى تدخل السفينة ، ثم يمدّونها كما كانت تحبيساً لها..... »(١)

ونظير هذا القول ما حكاهُ القزويني في صفة المهدية وميناثها والسلسلة الراكبة عليهِ ، غير أنهُ ذكر عدداً آخر للسفن التي يسعها هذا الميناء، واليك قوله: «.... ومرساها منقورة في حجر صلد تسع مايتي مركباً (كذا) ، وعلى طرف المرسى برجان بينهما سلسلة حديد ، إذا أريد إدخال سفينة أرسل الحرّاس أحد طرفي السلسلة لتدخل الخارجة ثم يمدّها...»(٢)

الذيل

البُطس ، واحدتها البُطسة وهي ضرب من مراكب البحر الكبيرة ، تتخذ في الحروب وفي التجارة ، وهي بلغة أهل أسبانية . ورد ذكرها غير مرة في كتب التاريخ . وكانت البُطسة الواحدة تشحن بمئات الرجال ، وبكثير من غرائر القمح، وبالمير والأسلحة الثقيلة . قال ابن شداد (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفيّة — خزانة كتب الحروب الصليبية — ٣ : ٢٢٠ — ٢٢١ ، باريس سنة ١٨٨٤) : في خبر بُطسة إسلامية عظيمة أنها وصلت « من بيروت مشحونة بالآلات والأسلحة والمير والرجال والأبطال والمقاتلة ، وكان السلطان قد أمر بتعبيتها وتسييرها من بيروت ، ووضع فيها من المقاتلة خلقاً عظيماً حتى تدخل البلد مراغمة للعدوّ ، وكان عدّة رجالها المقاتلة ستمائة وخمسين رجلاً ، فاعترض لها الافكتار في عدّة شوانٍ قيل كان في أربعين قلعاً فاحتاطوا بها من جميع جوانبها واشتدّوا في قتالها ... »

وقال في مكان آخر (٣ : ١٧٨ — ١٧٩) : « ... وكان الفرنج ... قد أداروا مراكبهم حول عكة حراسة لها من أن يدخلها مراكب المسلمين ، وكانت قد اشتدّت حاجة من فيها إلى الطعام والميرة، فركب بُطسة ببيروت جماعة من المسلمين وأودعوها أربع مائة غرارة قمح ، ووضعوا فيها من الجبن والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة ... »

وإليك خبراً حرره المقريزي في أحداث سنة ٥٧٨ هـ (السلوك في معرفة دول الملوك ، بتحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة ، ١ : ٧٧) يوضح فيهِ العدد الكبير من الجند وغيرهم ، الذي تستوعبه البطسة . قال : « ... وخرج عزّ الدين فرخشاه من دمشق ، فأغار على طبرية وعكة ، وأخذ الشقيف (أرنون) وعاد بألف أسير ... وألقى الريح بطسة للفرنج الى برّ دمياط ، فأسر منها ألف وستمائة وتسعون نفساً سوى من غرق » .

---

(١) معجم البلدان (٤ : ٦٩٥ — ٦٩٦) (٢) آثار العباد (ص١٨٣ — ١٨٤)

الرؤساء الثلاثة

- ٢ -

لنكلن : محرر الرقيق

للدكتور نجيب الأرمنازي

بعد ثمانين سنة ونيف مضت على نشأة هذه الأمة الأميركية أصابتها أزمة شديدة تعرّض بها الاتحاد لخطر التفكك والانحلال ، وذلك بسبب الخلاف الذي نشب بين ولايات الشمال وولايات الجنوب ، فكان لنكلن هو الرجل الذي أرسلته العناية لحماية الاتحاد والغاء الرقيق ، وهو من أغرب شخصيات العالم ، نشأ في بيئة فقيرة ، وقضى سنيه الأولى في البؤس والحاجة . وكان من أول عمره شديد الاقبال على التعلم ، فقرأ بعناية وشغف بعض الكتب التي وقعت له ، وكان لا ينفك عن مطالعة التوراة وشكسبير ، ويتطلع منذ صغره إلى ما يكون له من عظم الخطر في هذا العالم الفسيح الذي لم يكن يعرف شيئاً كثيراً عنه ، ولم يكن يفارقه الغم والتردد حتى بلغ الخامسة والعشرين من عمره من غير أن يتخذ لنفسه طريقة في الحياة ، وكان الناس يحبونه حباً جمّاً ولا سيما رفاقه ، إذ كان حلو الحديث سائغ المورد لطيف المعاشرة كريم السجايا ، دون أن يخرج عن وقاره ورزانته ولعلّ الجد الذي في وجهه كان عنوان حياته الأولى وأثر الغابات العابسة والسهول المقفرة ، أما بشاشته فهي من تطلعه إلى النور والتعلم وبروق الآمال ، وقلما عرف الرجال حتى أقربهم اليه ما تنطوي عليه نفسه من قوة وعزيمة وقدرة ، وقد وصف دغلاس أحد أعضاء مجلس الشيوخ ومعارض هذا الرجل المجهول بقوله : « ما أشد الجهد الذي ينبغي عليّ أن أبذله في لقائه ومنافسته ، هذا هو رجل حزبه الذي لا تلين له قناة ، ولا يفارقه ذهنه الحديد ، ولا يضاهى في معرفة التواريخ والوقائع ، أفضل من يرتجل الكلام في هذا الغرب ، وهو شريف لا يَخدَع وأريب لا يُخدَع » .

وكان أكبر هم لنكلن أن يصون الاتحاد ، والاتحاد عنده قبل الدستور ، لأن الدستور

قد وضع ليجعل الاتحاد أكثر انسجاماً ، فلا تستطيع دولة أن تخرج من الاتحاد وفاقاً لمشيئتها ، وكل قرار تصدره في هذا الشأن لا عبرة له من الوجهة الشرعية ، فالاتحاد لا يمكن أن يتطرَّق اليه الوهن أو أن يتعرض لخطر الحل ، ولما افتتح رئاسته الأولى سنة ١٨٦٠ خاطب مواطنيه الغضاب بقوله : إن المكاره التي تحاذرونها هي في الحقيقة غير كائنة ، وتبعة الحرب الأهلية المخيفة لا تقع عليَّ ، وإنما تبعتها بين أيديكم ، إنكم تحلفون الايمان على تقويض بنيان الحكومة ، وأنا أرفع الصوت جهرة وأنادي معلناً مشهداً أنني سأحميها وأدافع عنها وأحافظ عليها . . . وأكد نيته تطبيق القوانين في جميع أنحاء الدولة ، وأبدى كثيراً من روح التساهل في هذه الخطبة حتى عدَّ ذلك موطن ضعف ، ولكن يده الحديدية كانت — كما يقول الفرنجة — في قفاز من « القطيفة » ، وقد انقاد إلى بعض الدواعي السياسية فأرجأ قضية تحرير العبيد ، وصرف همه إلى صيانة الاتحاد ، سواء أكان قد حرِّر العبيد أم لم يحرَّروا في أثناء هذا النضال.

***

ولما استعرت نار الحرب عقد مجلس الأمة مؤتمراً استثنائيًّا فبعث اليه برسالة لم يكن فيها لبس ولا غموض ، فوصف حالة البلاد وذكر ما لسلامة الاتحاد من شأن في نظر العالم ، وقال : على هذا النضال الذي نتحمل أعباءه يتوقف أمر هو أكثر من مصير الولايات المتحدة ، إذ أن الأسرة الانسانية الكبرى تشهد : أجمهورية دستورية دمقراطية أم حكومة الشعب قادرة على صيانة حدودها وقمع الفتن الأهلية ؟ وهل يجب أن تكون الحكومة قوية جدًّا حتى تستطيع أن تدفع عن حريات مواطنيها أو أن تبلغ درجة من الضعف بحيث تعجز عن صيانة نفسها ؟ وكان لنكلن قد وقف قانون الحرية الشخصية وتجاوز سلطته — ودعا من ذات نفسه الى زيادة عدد الجيش في البر والبحر ، وفي ذلك خروج ظاهر على القانون ، غير أن لنكلن كان يرد على منتقديه بأن السلامة العامة تتطلب تلك الوسائل الاستثنائية ، وقد أصدر مجلس الأمة قراراً تجرَّد فيه من كل عاطفة غضب وحقد ، ولم يهتم إلاَّ بواجبه نحو البلاد كلها ، وهو عالم بأن هذه الحرب ليس فيها روح اضطهاد أو رغبة في فتح ، وما أوقدت نارها إلاَّ لحماية الاتحاد والمحافظة عليه والتساوي في الحقوق بين جميع الدول . ومتى أدركت هذه الغاية فان الحرب واضعة أوزارها.

أما تحرير الرقيق فلم يعلن إلاَّ في سنة ١٨٦٣ فكان لاعلانه أثر كبير في مختلف أقطار

الأرض، وكانت الشعوب قليلة الاهتمام ببقاء الاتحاد الأميركي أو زواله، ولكن إعلان لنكان لتحرير العبيد أثار في العالم هزة إعجاب وإكبار. ولم يخل من ذلك حتى بعض الذين كانوا يتوقعون انتصار الجنوبيين. وقامت على الأثر دعوة تحرير العبيد ولاسيما في بريطانيا العظمى.

ولم يكن الرئيس يقبل تسوية أو هوادة في الأمر الذي يقره. ولجأ إلى وسائل العنف لقمع الفتن والثوائر التي كان يثيرها معارضو خططه، وقد لمس موضع الداء بإشارته إلى عقاب الموت الذي يصيب الجندي عند فراره من الجيش، وتساءل هل ينبغي اطلاق النار على جندي مسكين جاهل لاذ بالفرار، ولا يجوز أن تنزع شعرة من رأس المهيج المحتال الذي حرَّضهُ؟ وقد حاول مندوبو الجنوب في حديث طويل أن يقنعوه بعقد صلح مع الولايات الجنوبية، واستشهدوا على ذلك بما فعله شارل ملك انكلترة بمفاوضة العاصين من رعاياه، فأجابهم: إن بضاعتي مزجاة في علم التاريخ، وأنا أرجع في هذا الأمر الى أمين سر الدولة، وكل ما أذكره من هذه القصة أن شارل الأول قطع رأسه.

* * *

لقد تقلد كثير من الأميركيين السلاح لأنهم كانوا يحبون الاتحاد ويحرصون عليه، ولا يحجمون عن بذل دمائهم في سبيل البلاد وصيانتها من التجزئة، ولكن لنكان قاده إلى ذلك سبب أسمى وغاية أبعد، فقد رأى أن مبدأ الدمقراطية وحكم البلاد نفسها بنفسها كان معرَّضاً للخطر، وأن سعادة الأسرة الانسانية بأسرها ذات علاقة بهذا الأمر، ولم يكن يطيق لنكان إدراك هاتين الغايتين العظيمتين دون مؤازرة الشعب القادر المخلص، وحق للرجال أن تشاطره الفخر بهذا النصر. غير أنهُ أحق بالنصيب الأوفى لأنهُ كان ربان السفينة الذي يقودها في ساعة شديدة الحرج. ولا يشك أحد في أن لنكان كان الرجل كل الرجل، ولكن ليس من الهين تحديد الصفات التي تكوّن أسباب عظمتهِ، فدهاؤه لم يكن يبهر الأقربين اليهِ، حتى إن وزارته أتى عليها بعض الزمن قبلما تكشفت القناع عن أسراره وبعد أن سبقها الشعب، ولم يعرف حق المعرفة إلاَّ بعد موتهِ سمو آرائهِ التي دبَّر بها الأمور في ذلك العهد الدقيق الخطر، وكلما زاد تأمل الناس كلماته زاد شعور الاعجاب به، وقد تكون اكبر فضائله القدرة على تبين الرأي العام، وقلما تمتع رجل دولة بما تمتع به من الثقة، أما تأثير صدقه فلم يكن يقتصر على الجماهير.

ولم يحاول أحد أن يستخرج كنه هذه العبقرية. ولم يذكر التاريخ خلقاً عظيماً فاجأ العالم بمثل هذه المفاجأة، وقد وصفه غولدوين سمث المؤرخ الانكليزي بقوله: ولد في آخر

طبقات المجتمع، وتكوّن في بيئة النضال والشقاء، وسما في الحياة العامة حتى أصبح الأميركي الأول، وتقلد أعباء مهمته في الوقت الذي كانت قوى الحرية وقوى العبودية توشك أن تشتبك في قتال مميت، فقبض على أزمة الحكم بيد قوية، ولولا عبقريته الفذة لما سلم الاتحاد في رأي الكثيرين. وقد أودت رصاصة قاتل بهذا الرجل العظيم الذي هو من أفضل نجار عرفته الإنسانية الحرة، وكان الرزء بهِ أعظم الأرزاء التي ألمت بالولايات المتحدة، ومنذ غيب الثرى وجهه ما برح يعلو نجمهُ ويتألق كوكبهُ، وهو لا يعد رئيساً عالي الصيت للولايات المتحدة، بل يعد من أعظم رجال التاريخ، وحسبه العملان العظيمان اللذان قام بهما لتخليد ذكره: إلغاء الرق، وصيانة الاتحاد.

* * *

وفي سيرة لنكلن الحافلة بالأعمال الجليلة نجد كثيراً من المتناقضات التي هي عنوان عظمته، فقد كان مظهره مظهر واثق بأصحابه مطمئن اليهم، ولكن نفسه العجيبة كانت بعيدة الغور بحيث لا يدرك مكنونها، وكانت تلوح عليه مخايل الرجل المتلجلج المتلكئ المضطرب، ولكن وجهه لم تفارقه قط روعته، وكان حاضر الذهن فلا تفوته الكلمة النادرة أو رواية بعض الحوادث الفكهة، غير أنه كان في قرارة النفس التي انطوت عليها جوانحه مجرى حزن وأسىً يملأ حياته ويتبين في جميع مواقفه، وهو لم يكن راسخ القدم في فن الخطابة، ولا طويل الباع في علوم الأدب، ولكن كلامه في شؤون الرق من أبلغ ما تفجرت بهِ عيون الفصاحة في ذلك الزمن إيجازاً ومتانة وقوة حجة، وكانت خطبته في جتسبرغ على أثر الوقعة الكبرى المسماة بهذا المكان، وخطبته في افتتاح عهده الثاني، من درر الأدب الرفيع.

فمن أقوال لنكلن التي كان ينطق بها عن فطرة ملهمة وملكة متأصلة كما هو شأن سائر قادة الشعوب: «إن من الامتهان لسكان بعض الولايات ألاّ نراهم جديرين بحكم أنفسهم، ولا جدال في أن مبدأ حكم الشعب لنفسه بنفسه صحيح، وسيظل صحيحاً الى الأبد، ولكن إذا كان الزنجي رجلاً ألا نرى - بقدر ما في المبدأ من صحة - أننا إذا حرمناه حكم نفسه إنما نخرق بذلك مبدأ سيادة الشعب، وإذا حكم الرجل الأبيض نفسه كان ذلك تطبيقاً لمبدأ سيادة الشعب، ولكنه إذا كان يحكم نفسه ويحكم رجلاً غيره، فذلك أكثر من سيادة الشعب: إنهُ الاستبداد، وليس في الناس من يتوافر لديه الخير ليحكم غيره بدون رضاه، وما حياة أمة نصفها حر ونصفها الآخر عبد». وكان يقول في الرق إنهُ يمقته لما

ينطوي عليه في ذاته من جور قبيح ، ويمقته لأنه يسلب النظام الجمهوري الذي نحمله الى العالم مثالاً من أثر الحق في أيدينا ، ويمقته لأنه يدفع رجالاً كثيرين من الأخيار الى محاربة المبادئ الأساسية للحرية المدنية ، فيصرون على دعواهم أنه ليس ثمة من حق نستند اليه في أعمالنا وما هنالك إلاَّ المصلحة الشخصية .

أما خطبته بعد يوم جتسبرغ في ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٦٣ فانها قد سارت كل مسير . وتوارث الأميركيون ما فيها من كلمات بليغة ، حتى إن الرئيس ولسن الذي كان معجباً بسلفه البعيد لنكلن أوردها بتمامها في كتابه تاريخ الشعب الأميركي ، وقد طبع على غرارها إحدى جلائل خطبه ، وهي التي افتتح بها رئاسته الثانية ، وكان قد اجتمع الناس في ساحة الوقعة أو على مقربة منها غداة ذلك اليوم الذي كان من أشد أيام الحرب الأهلية هولاً ليمجدوا ذكرى ضحاياها . وسألوا الرئيس أن يخطبهم في هذا الحفل المشهود ، فتكلم بكلام رفت لهُ القلوب وذرفت العيون ، وكان مما قاله :

« منذ سبع وثمانين سنة خلت انجب آباؤنا في هذه القارة أمة جديدة رضعت لبان الحرية ، ونذرت نفسها للدعوة بأن جميع الناس ولدوا على السواء .

ونحن الآن في حرب أهلية ضروس تمتحن فيها هذه الأمة لتعرف هل تستطيع الحياة والبقاء هي أو أية أمة غيرها نشأت نشأتها ونذرت نفسها مثلها . وفي هذه الساحة نلتقي في ميدان عظيم من ميادين هذه الحرب وقد جئنا اليه لنجعل من بعضه مثوى خالداً لأولئك الذين جادوا بحياتهم لتحيا هذه الأمة ، وحق علينا كل ما نقوم به في سبيل ذلك .

غير أننا ليس في وسعنا أن ننذر أو نقدس أو نبارك هذه الأرض ، إذ ليس في متناول طاقتنا أن نزيد في مكانتها أو أن ننقصها بعد أن أفاض عليها الأبطال الذين ناضلوا فيها أحياءً أو أمواتاً ما أفاضوا من حلل التقديس . والعالم لن ينظر إلاَّ قليلاً ولن يذكر إلاَّ قليلاً ما تنطق به أفواهنا في هذا المكان ولكنه لا يستطيع أن ينسى أبداً ما صنعه فيه أولئك الأبطال . وجدير بنا أن ننذر نفوسنا ههنا للعمل الذي لم يتمه والذي خطا به المقاتلون فيه خطوات كريمة . وإنه ليجدر بنا أن ننذر أنفسنا في هذا الميدان للمهمة العظمى التي يجب علينا أن نتمها وأن نستمد من هؤلاء الموتى الأمجاد ولاءً متزايداً لهذه القضية التي جادوا في سبيلها بأقصى غاية الاخلاص ، وأن نعقد العزيمة الصادقة على أن لا يكون موت هؤلاء قد ذهب ضياعاً وعلى أن تبعث الحرية في هذه الأمة التي تستظل بظل الله بعثاً جديداً ، وأن لا تضمحل على وجه هذه الأرض حكومة من الشعب وبالشعب وللشعب » .

وقد تمتع الرئيس لنكان بسلطة عظيمة في مدة أربع سنين لم ينلها أحد من قبله ولم يطلبها أحد من بعده ، فلم يستبد ولم يستأثر ، ولم يغير شيئاً من أوضاع الدولة ومناهجها ما عدا علاقة السيد بعبده وتعزيز بنيان الاتحاد وتوثيق عراه ، فما تبدل شيء من الحريات العامة ، ولا تحوَّلت طبيعة الأمة الجوهرية من أنها محبة للسلام ، ولما انفضت الجيوش بعد أن أسدل قناع هذه الحرب الضروس ، عاد الجنود إلى شؤونهم السلمية باندفاع كأنهُ السحر ، وآخر عمل قام به الجيش هو عرضه الأخير الذي مشت فيه الصفوف تجري في أعطافها هزة النصر لتحيي قادتها ورؤساءها التحية الأخيرة ، ولكن غاب في هذا اليوم أحق الرجال بفخر الظفر وأزهدهم فيه ، الذي رمقهُ العالم بأسره وامتلأ قلبه بحب بلاده . طوته المنون قبل عشرة أيام في سجل العظماء الخالدين .

***

واذا كانت الحرب قد انتهت فانها قد جرَّت وراءها جرائر ، وكان ينبغي مواجهة مشكلات الانشاء والتعمير ومعاملة أهل الجنوب بعد أن أعادهم السيف الى حظيرة الوطن ، فكان يرى فريق في طليعتهم الرئيس لنكان وأمين سر الدولة سوارد والقائد غرانت وهم الذين أبلوا أحسن البلاء في إطفاء الفتنة وإزالة التفرقة ، وأنهُ ينبغي العفو والصفح حتى تنقضي الحرب ولا أحقاد ولا ضغائن . وقد قام في وجه الرئيس من يعارضه ، ويرى أن يصلى بنار الحرب جناتها ومثيرو نقعها ، وهم لا يشاركون القائلين بالاكتفاء بعودة أهل الجنوب إلى الوطن ومنحهم الحقوق والمزايا التي يتمتع بها سكان الشمال ، بل يرون معاملتهم بقوانين البلاد المفتوحة ، جزاءً لما كسبت أيديهم ، ولا ينظر أصحاب هذا الرأي لما يظهرونه من صدقٍ وإخلاص ، فلولا انكسارهم لأصروا على بغيهم وتعنتهم ، ولكن الرئيس كان على عادته متمسكاً بالخطة التي يمليها عليه عقله لا هواه ، فقد خاض غمرات الحرب بقلب لا يكاد يطيعه ، ولكن عزيمته لا تنثني ، فحارب مكرهاً أشد حرب ، لأنه لم يجد عن الحرب مندوحة ، حتى إذا وضعت أوزارها أقبل على مداواة ما خلفته من الشرور التي أخلت الديار وأخربت الربوع وأوحشت المغاني ، فهل أدرك الذي فتكت يداه بالرئيس تعصباً لأهل الجنوب ، ما ينطوي عليه ذلك القلب الكبير من رقة ورحمة ؟ .

مدرسة المعري

لكامل كيلاني

كنت أشعر دائماً أن الحاجة ماسة إلى تنسيق مكتبة للشباب تجمع كثيراً من فنون الأدب العربي في عصوره القديمة والوسطى والحديثة .

وأعني بالأدب العربي ما يحمله المنظوم والمنثور من نتائج قرائح الشعراء والخطباء والمترسلين ، وطرائقهم في التصرف في أفانين القول ، وأساليب البيان والتبيين .

***

ورأيت أن « أبا العلاء » وحده مدرسة جامعة لأهم عناصر فنون الأدب ، من أول عصور الجاهلية إلى العصر الذي كان يعيش فيه ، إذ كان أدبه منفرداً ، مغنياً عن أدب غيره مجتمعاً .

ومن حقه علينا ألاَّ ندخر جهداً في إحياء مدرسته وتجلية برامجها ومراسمها ، وإنارة معالمها ، فما أجدر هذا البارع الموهوب أن يدرسه المعاصرون بعناية كاملة ، دراسة شاملة ، وأن يتثبت المتحدثون ، ويتريث الباحثون ، ويطيلوا الروية في تمحيص نصوصه وتفهم مباغيه ، والفحص عن أهدافه وتقصي مراميه ، فلا يصدروا — له أو عليه — حكماً قبل أن يتموا قراءة آثاره ، ويطيلوا التأمل في معانيها ومراميها بحثاً وفهماً حتى يصلوا إلى غايته ومرماه ، ويبلغوا الصميم مما عناه وتوخَّاه ، ويكتنهوا الهدف الذي قصد اليه وانتواه . ولن يصلوا إلى شيء من هذا إلا بعد أن يطيلوا الروية والفحص عما اكتنف الشاعر من ظروف ومناسبات ، وحوافز وملابسات ، أوحت اليه ما كتب ، وأنطقته بما قال . وما أجدرهم أن يتثبتوا مما يروونه له ، أو يأخذونه عليه ، من شعر ونثر ورواية ، ويتعرَّفوا من أي معين استقى رواته ؟ ومن أي مشرع نهلوا ؟ أمن أثبات كتبه ؟ أم فائت شعره ؟ أم مما انتحله ودسه عليه الحاقدون والكائدون ممن وقفوا حياتهم على تشويه الحقائق وإفساد التاريخ ؟ وهل ينسجم أسلوبه مع أسلوب « أبي العلاء » ؟ أو هو بعيد عنه مكذوب عليه؟

فإذا تثبتوا من ذلك كله ، واطمأنوا إلى صحة النص العلائي وأصالته وجب أن يتعرفوا الزمن الذي قاله فيه على اليقين والتحقيق ، لا على الحدس والتلفيق . وفي أي عهد نطق به الشاعر : أفي عهد الشباب أم الشيخوخة ؟

وكيف قال « أبو العلاء » أجادًّا كان أم ساخراً ؟ مثبتاً أم نافياً ؟ منشئاً أم راوياً ؟ ساخطاً أم راضياً ؟ مجاملاً أم متحدياً ؟ معابثاً أم هادياً ؟

وأي الطريق سلكه حين أثبت ما قال : طريق الحقيقة أم طريق المجاز ؟

وعلى أي لسان أجرى حواره وساق أدلته : على لسان العاطفة أم على لسان العقل ؟ وعلى لسان الحكيم أم الشاعر ؟ وأي الأسلوبين توخى : الشك أم السخرية ؟ وإلى أي هدف سدد طعنته ؟ وهل أصاب سهمه رميَّته ؟

ورحم الله ناقدنا العظيم « عبد القاهر الجرجاني » حين عرض لدقائق البيان وأسراره ، فروى قولةً رائعة المغزى عميقة الدلالة في شرح ما نريده ونبغيه ، وتجلية ما نهدف له ونعنيه . وقد أوردها في سياق حديث لبعض المستنيرين ، قال : ما علمت أنَّ كلمة : « سبحان الله » تكسب قائلها إثماً إلاَّ اليوم ، فلما سئل عن السبب قال :

ذكر أحد الناس عند « أحمد بن يحيي » — المعروف بثعلب — بسوء ، فقال أحدُ الحاضرين : « يا سبحان الله ! »

فقال « ثعلب » : « أثمتَ » .

وما نظنُّ القارىء في حاجة إلى الكشف عن موطن الإثم في تسبيح ذلك الرجل ، فقد ثبَّت — بتسبيحهِ — التهمة على من قُذف بها ، وأدخل في روع السامعين أنهُ اقتنع بصدق ما أُسند إلى صاحبه من غير مناقشة ولا تمحيص !

ومن ثمَّ غضب عليه الإمام اللغويُّ الأديب : « ثعلب » ، وخطَّأه وأثَّمهُ .

وقريبٌ من هذه اللفتة البارعة قولُ أبي العلاء :

إذا رام كيداً بالصلاة مقيمُها   فتاركها – عمداً – إلى الله أقربُ

وقد أخذنا أنفسنا في رسالتي « الغفران » و « الهناء » وكتاب « على هامش الغفران » ألاّ يعرض « أبو العلاء » لمعنى فلسفيٍّ ، أو يُلمع إلى فكرة من خواص فكرهِ ، إلاّ ألحقنا بها ما يماثلها — فيما نقل عنهُ — ولا جرم أنَّ شعر « أبي العلاء » ونثره يفسر بعضهُ بعضاً ، فهو يلمِّح إلى الفكرة في بيت ، ويوضِّحها في بيت آخر ، ويزيدها إبانةً وتوضيحاً في متناثر أبيات أخر .

فلا منتدح لمن يتناول بالبحث إحدى نواحي « أبي العلاء » من أن يستقري شعره

ونثره ويتفطّن إلى النظائر والأشباه ، وما يتداخل من أفكاره ، وما يرجع من بعضها على بعض ، حتى تنفسح أمامهُ سبل الموازنة والترجيح .

وما أحوج القارئ لآثار هذا الفيلسوف الأديب المتفرد في أسلوبه وتفكيره ، المبدع في بيانه وتعبيره ، المغرب في ألفاظه ومبانيه ، المتعمق في أغراضهِ ومعانيه ، أن يضاعف يقظتهُ – كما أسلفنا القول في مقدمة الغفران – لتفهم معناه البعيد ، ويحبس انتباهه لتقصّي مرماهِ الخفيّ ، ويجلُوَ فطنته لاكتناه مغزاه المستسرّ . ويحشد قواه الفكرية كلها ، فلا يتوزَّعهُ تحري الصواب في إعراب كلمة ، أو تصريفها ، أو وجه سياقها .

وقد يكون ذلك أجمع سهل القيادة ميسور التَّأتّي ، هيّن الدَّرك ، للأديب المتمكن ، ولكنهُ – على ذلك – شدَّ ما يكون حجر عثرة في طريق الشداة من المتأدبين ، فسرعان ما يدركهم الملل ، ويقعد بهم العجز ، ولا يلبثون أن يضجروا بمتابعة القراءة ، وبذلك يفوتهم – على الرغم منهم – أن يستمتعوا بهذه الكنوز الفكرية ، الجديرة بالجد والمعاناة .

واستتبع هذا العمل أن نشرح الألفاظ شرحاً دقيقاً ، يتكشف بهِ المقصود من معانيها في عرض الكلام .

ويسير غاية اليسر هذا العمل ، لو أن الكاتب غير « أبي العلاء » من كتّاب الغريب المنصوص عليهِ صراحة في المعجمات .

فان امتلاك « أبي العلاء » لناصية اللغة ونوادرها ، وسعة محفوظهِ من جزل النظم والنثر ، وتمرسهُ بمختلف أساليبها ، وغوصه على فرائدها ، وتهديه لأبكار المعاني وعيون الكلام ، وتوفقهُ الى ابتداع الصور الفنية الرائعة ، وحشده أفانين مختلفة من معجب التصاوير ، وبارعِ الصيغ ، وتبحره في التاريخ ، كل أولئك قد أجرى لسانهُ بالكثير الأكثر من صور ألفاظ ، تدلُّ – بعد الروية ومدّ البحث – على غير المعروف الظاهر من معانيها ، بما توسعت بهِ اللغة ، وتشعب التصريف ، فصار واجباً أن نحد المراد من اللفظ في سياق الجملة حدًّا دقيقاً ، وأن نفسره بما يقتضيهِ ذلك السياق (١) .

***

فما أكثر ما تخفى إشاراته على الفطن اللبيب الذي لم يرُض نفسه على طول مصاحبته والانتقال معه في أجوائه الفكرية ، وسماواتهِ الفلسفية ، ومفازاتهِ وجناتهِ الأدبية .

---

(٢) انظر مقدمة الطبعة الثالثة من «رسالة الغفران»

وما أكثر ما تخفى تلميحاته وتصريحاتهُ على من قصروا في درس جغرافيته الذهنية ومراميهِ النفسية، وما أجدرهم أن يتعرَّفوا — إلى ذلك — موقع كل كلمة قالها، فان الكلمة الواحدة — كما يعلم القارئ — تقال في مناسبتين مختلفتين، فتكون في إحداهما شكراً وإيماناً، وفي الأخرى جحوداً وكفراناً.

﴿ لغة الجن ﴾ وقد أبدع فيلسوفنا — فيما قصه علينا من بدائع فنهِ — وبلغ ما هو جديرٌ بهِ من غايات الإمتاع والتجويد فيما أجراه من حوار بين صاحبه: «ابن القارح»، والجنيّ: «أبي هدرش»، وكان من بدائع لفتاته — في ذلك الحوار — قوله على لسان صاحبه وهو يحدِّثهُ في جنة العفاريت: «لله درُّك يا أبا هدرش! لقد كنت تمارس أوابد ومنديات (تزاول جرائم لا تنسى آثارها، ومخزيات لا تمحى ذكرياتها). فكيف ألسنتكم؟ أيكون فيكم عربٌ لا يفهمون عن الروم، ورومٌ لا يفهمون عن العرب، كما نجد في أجيال الإنس؟» فيقول: «هيهات — أيها المرحوم — إنَّا أهل ذكاء وفطن، ولا بدَّ لأحدنا أن يكون عارفاً بجميع الألسن الإنسية، ولنا بعد ذلك لسانٌ لا يعرفهُ الأنيس (١)»

فقد يرى الباحث في هذه الصورة العلائية الفاتنة مثالاً يفسر ما يحتاج اليهِ دارس النصوص العلائية من التعمق في درس الأدب العربي عامة قبل أن يتخصص في درس الأدب العلائي. فان شاعرنا يكاد يشبهُ الجنيَّ: «أبا هدرش» في المعرفة والاحاطة، فهو عارفٌ بالأساليب العربية، وله — بعد ذلك — أسلوب ينفرد بهِ فلا يكاد يشركه فيهِ أحدٌ من الأناسي — وسيرى القارئ في المعجم العلائي — متى أذن الله لهُ بالظهور — مصداق ذلك.

﴿ قرَّة العين ﴾ على أننا نجتزئ — في هذا المقام — بمثل واحد يقرِّب من حوار الجنيّ ما بعُد، ويصوِّر للقارئ بعض ما نعنيهِ، بهذا التشبيهِ.

فلو أن أديباً قرأ البيتين التاليين — قراءة عابر غير متعمق — وهما من فائت شعر «أبي العلاء»:

«يا قُرَّة العين: «أم حفصٍ» و «أم عثمان» جارتاكِ
فتلكِ لا تحذرين منها، وهذه تبتغي أذاكِ»

فما نحسبهُ يخرج منهما بطائلٍ ولعلهُ لا يرى فيهما إلاَّ معنًى تفهاً غاية في الضآلة والحقارة، فقد يحسب أن شاعرنا يناجي حبيبةً له ويتودَّد قائلاً:

---

(١) ارجع الى الفصل الرابع من رسالة الغفران

«إنَّ لكِ — يا قرَّة عيني وبهجة نفسي — جارتين إحداهما تدعى : «أُمَّ حفص» والأخرى : «أُمَّ عثمان» .

أولاهما بعيدة عن الأذيةِ والشرّ مأمونة الضرر ، أما الأخرى فهي على العكس منها مخوفة البطش جديرة بالتوقى والحذر .

وهي — على هذا — صورة عادية قليلة الغناء ، مسلوبة الرُّواء ، غير خليقة بفن «أبي العلاء»

⁂

ولكنك تقرأ البيت التالى في لزومياته :

ما قُرَّةُ العينِ (١) — ذاتُ الوِردِ (٢) معوزةٌ (٣)   وغُيِّبت — عن بواكي الأعين (٤) القُرُرُ (٥) »

فلا تلبث أن تنعم النظر فيه قليلا حتى ينكشف لك من تفصيل هذا اللوح العلائي الفاتن ما لم يكن ليخطر لك على بال ، ولا يلبث أن يجلو لك — على إيجازه — بعض ما غمض عليك في ذين البيتين .

فهو هنا لا يزال — كما ترى — مشغول الخاطر موصول التفكير بالحديث عن قرَّة العين ، ولكنهُ لا يعني بها قرَّة عينه ، وبهجة خاطره ، وحبيبة نفسه ، كما تبادر اليك أول وهلة ، بل هو يجري على مألوف عادته في الإيهام والتَّورية والاستخدام(٦).

فان القرَّة وهي الضفدع — كما تعلم — قد التبس معناها حين أضيفت إلى العين وهو لا يعني بها — في هذين المقامين — عين الانسان بل عين الماء ليمهد المقابلة في البيت الذي اخترناه من لزومياتهِ بين العين الجارية والعين الباكية تفيض إحداهما بالماء فيشفي ماؤها غلة الصَّادي ويُرويه ، وتفيض الأخرى بهِ فيعذب دمعها صاحبها ويشقيه . وهو يمثّل لك ضفدع الماء في هذا البيت ناعمة قريرة العين بما تظفر به من نصيبها في تلك العين ، غير محتاجة — بعد ذلك — إلى شيء آخر في الحياة .

---

(١) القرة : الضفدع . وقرة العين : ضفدع الماء (٢) الورد : النصيب من الماء ، والورد (أيضاً) : القوم يردون الماء . (٣) معوزة : محتاجة (٤) بواكي الاعين : الاعين الباكية . (٥) القرر : الافراح والمسرات وجالبات البهجة ، تقول : قرت عينه قرة (مصدر ضد سخنت) بردت وانقطع بكاؤها واستحرارها بالدمع ، فان للسرور دمعة باردة وللحزن دمعة حارة.

وقرت العين (من القرار) أي : رأت ما كانت متشوقة إليه ، فقرت ونامت.

قالوا : « وقرت عينه (من القرور) وهو الدمع البارد يخرج مع الفرح »

أقول : « قرت عينك أيها القارىء » اي طابت نفسك.

(٦) الاستخدام ، فيما يقول علماء البديع : أن تخدم الكلمة معنيين ، والتورية (أو الإيهام) : أن يطلق لفظ له معنيان : قريب وبعيد ، ويراد البعيد اعتماداً على قرينة خفية.

فهي — على صغر قدرها وهوان شأنها وضآلة خطرها — مستغنية راضية بعيشها وادعة قانعة برزقها .

على حين حرمت الأعين الباكيات أن تظفر بما تصبو اليه من بهجة وسرور ، وعزّ عليها أن تلقى ما لقيته الضفدع من راحة العزاء ، وتظفر بما يكفكف من عبرتها ، ويسكن من لوعتها .

***

فإذا رجعت إلى اللوح الأول — على ضوء هذا البيت — تكشف لك جماله شيئاً ، ثم لا يلبث الضوء أن يجلوه لك في أبهى صوره ، وأجمل حلله ، حين تنصت إلى مناجاة شاعرنا لتلك الضفدع فتلمح — في ثناياها — شاعراً مشفقاً حدباً يخيل اليك — لفرط شغله بها ورحمته لها — أنهُ يعيش معها ، ويحيا في عالمها ويحس إحساسها ، ويعنيه ما يعرض لها من مشكلاتها ، ويبهج نفسه ما يسعدها فيفرح لأفراحها ، ويشقى بآلامها وأتراحها .

ولقد يخيل إليك — إذا أطلت التأمل في هذين البيتين وتركت لخيالك العنان — أنه يُسرّ اليها متردداً ، ويهمس في أذنها متودداً ، راثياً لما تلقاه في هذه الحياة من التعرض للأذاة ، وظلم الجائرين من الجناة .

وربما عنّ لك أن تسايره في خياله ، وأوحت إليك هذه الصورة أن تعبر عن آمالك وآماله ، مازجاً بين مقالك ومقاله ، مفصحاً عما ترجم عنه أو أغفله ، مفصلاً ما أوجزه بيانه وأجمله ، فتمثلته يخاطبها حانياً ، ويقول لها مناجياً :

« يا ساكنة الماء ، سلمت من كل بلاء . أيتها الضفدع المسكينة ، أتعلمين من تجاورينه ؟ وهل تبالين الخطر ـ كما نباليه ـ وتحذرينه ؟

ولو أنك — يا ضفدع الماء — عقلت ، فعرفت بعض ما جهلت ، لتفزعت مما تتعرضين له من فنون الإيذاء ، وضروب الألم والشقاء .

فاسمعي إن كنت تسمعين ، واعلمي إن كنت لا تعلمين ، أن لك — يا قرّة العين — جارتين ، مختلفتي الطباع متباينتين ، إحداهما : وفية شاكرة ، والأخرى غادرة ماكرة .

تعيش معك أولاهما في دعة وسلام ، ولا يتغير ودها على الأيام . أما الأخرى فهي ساهرة العين لا تغفل عن أذاك ولا تنام ، ولا تفتأ جاهدة تتربص بك عادية الحمام .

عنيت بالأولى صاحبتك « أم حفص » : تلك البطة الوادعة الكريمة ، وأردت بالأخرى عدوتك « أم عثمان » : تلك الحية المعتدية الأثيمة .

فأنت ترى في هذا اللوح — على إيجازه — كيف تشقى الضفدع كما نشقى ، وتلقى من حسن الجوار وسوئهِ مثل ما نلقى ، وكيف كتب عليها — كما كتب علينا — أن تجاور الأخيار، ثم لا تجد — الى ذلك — مناصاً من مجاورة الأشرار . فهي مثلنا تفوز — من إحدى جارتيها — بالسلامة فتسلم ، وتأنس منها بطيب الجوار فتنعم وتغنم ، على حين تلقى — من الأخرى — ما يروعها ويفزعها، وربما حان — على يديها — أجلها ومصرعها .

فإذا انتقلنا إلى رسالته التي بعث بها إلى خاله يعزيهِ ويواسيهِ ، ويهوّن عليهِ ما عظم من مصابهِ في فقد أخيهِ ، رأيناه يعرض لمصرعي الضفدع والحية معاً ، ويتمثل نهايتيهما جميعاً — فيما يعرضهُ خياله ويتمثله من مصارع الأحياءِ ، ممن عاش في البر أو سبح في الماء أو طار في الهواء — فيقول :

وعُلجوم (ضفدع) يصدح (يغنّى) إذا طلعت النجوم كأنهُ — في المشرع (الماء) — فارس أو مصطلٍ (طالبُ دفءٍ) والزمن قارسٌ (شديد البرد) .

وهاجة (وهي الأنثى من الضفادع)⁽¹⁾ بالماء شديدةُ اللجاجة، وحيةٍ لغائص الدُّرِّ منكلة (مؤذية ، او منحّية) تزعمَ العربُ : أنها بالدر موكلةٌ (حارسة له ،مفوضةٌ في أمره).

﴿ ترجمة النصوص العلائية ﴾ وقد بدأت — منذ سنوات — بنقل أسلوبهِ في شعره وكتبهِ ومساجلاتهِ، ورسائلهِ ومحاوراتهِ ، إلى أسلوب سهل يفهمهُ الشّادِي بعد أن مهدتُ لتلك النصوص بما يوضّحُ خفاياها ،ويكشف عن كنوزها وخباياها ، مازجاً — بين حين وآخر — ما صعب من شرحه ، بما يسهلهُ على القارئ من تفسيري ، وما علا من أسلوبهِ بما يدنيهِ اليهِ من تعبيري .

ورسالة الهناءِ بعد رسالة الغفران شاهدان عدلان، ودليلان باقيان ، بل آيتان باهرتان ، على ما أسلفه شاعرنا العبقري وفيلسوفنا الألمعي، للأدب العربي،والشباب الجامعي،من صور فكرية، وطرائف بيانية.

﴿ في العيد الألفي ﴾ وهذه حديقة أبي العلاء نزفها الى القراء في عيد مولده الألفي بما تحويه من ثمر جنيٍّ ، وغذاءٍ شهيٍ ، ينعم بها صفوة الشباب، من طالبي الآداب.

نقدمها أجزاءً وفصولاً، وترجمات وأصولاً :

نترجم النص العلائي الى الأسلوب العصري او نقبسهُ او نشرحهُ ، أو نجتزئُ بألفاظ تجلو غامضه وتوضحهُ .

---

(١) القرة والعلجوم والهاجة ، كلها بعض ما يطلق على الضفدع ، وقد فصلنا ذلك في كتاب « أصدقاء الربيع » وهو الجزء الأول من « قصص علمية للاطفال »

وفقنا الله إلى استثارة هذا الكنز واستخراج نصوصه وبدائعه، وتنسيق فصوصه وروائعه . وشرح ما استسر من غوامضه وخفاياه، وتجلية ما اشتبه من مقاصده وطواياه، وإسعاد القارئ بما اختص به شاعرنا المحبوب ، وفيلسوفنا الموهوب، من توجيهات فلسفية ونفحات عبقرية ، وإشارات ساحرة ، ولفتات ساحرة، ونقدات باهرة ، ورياض حافلة بنضير الأزهار ، وضاحك النوار ، وناضج الثمار . وعوالم زاخرة بفنون الحياة ، ناطقة شخوصها بأروع ما يتخيله الفكر ويتمناه .

﴿أسلوب المعري﴾ وقد سلكت في حديقة «أبي العلاء» ، ما سلكته في «رسالة الهناء» ، فترجمت — في هذه وتلك — إلى أساليبنا العصرية ، جمهرة من بدائعه الفكرية ، اخترتها من «سقط الزند» و «ملقى السبيل» و«ديوان اللزوميات» و«رسالة الغفران» وكتاب «الفصول والغايات» ، وما إليها من أثبات كتبه ، ونفائس أدبه .

وأسلوب شاعرنا — كما يعرفه رواده ومريدوه — أشبه بالغابة منه بالحديقة ، وبالجبل الشامخ ، منه بالسهل المنبسط الفسيح.

فهو يسلس لقارئه حيناً ، ويتوعر أحياناً ، وتفصح الفاظه عن خفاياه مرة ، وتغمض على الأكياس — مرات — فلا تسلس لهم عناناً ، وتشتبه أغراضه — كما رأيت — فيقتضي فهمها شارحاً وترجماناً.

فلا غرو إذا نسقت إلى جانب تلك الغابة العلائية المشتبكة الأصول والألفاف (١) ، المتوشجة (٢) المسالك والأهداف ، المتباعدة الحدود والأطراف : حديقة (٣) حالية ، قطوفها دانية ، واضحة معالمها ، بينة مراسمها.

وأسلوب شاعرنا كالذهب ، ولا غرو في ذلك ، فهو يتوخى — إلى إبداعه الفني — نصرة الحق ، وفي الحق من الذهب — كما يقول — ثلاث خلال : ثقله ، ولونه ، وبقاؤه على الأبد بغير تغيير .

وقد أضفنا — بما ترجمناه وقبسناه وشرحناه — إلى ما يحتويه المنجم العلائي من حر ذهبه الأصفر قليلاً من النحاس الأحمر، ليصبح كالعملة الذهبية الحديثة أقرب إلى التداول وأدنى إلى التناول . فالنحاس — كما يعلم القارئ — يخالط الجنيه الذهبي فيضفي على صفرته شيئاً من حمرته ، فيكتسب سناه — من عنصريهما — سحره وفتونه، ويستمد صوته — من معدنيهما — جرسه ورنينه، ويستجد إشراقه — من لونيهما — ما يختال به من نضرة وزينة.

---

(١) الالفاف : الاشجار يلتف بعضها ببعض (٢) المتوشجة : المشتبكة

(٣) انظر صفحة ٥٢ من « حديقة أبي العلاء »

وأسلوب شاعرنا كالصهباء المعتقة، فلاغرو إذا مزجناها بقليل من الماء ليخفف من سورتها(١) على محتسيها، ويلطف من نشوتها على شاربيها، فما أندر من يطيق احتساء المعتقة صرفاً، وليس كلُّ قارئٍ — فيما نرى، حليفاً للنصوص القديمة وإلفاً، وقلما تطيق المعدة الطعام إذا أفرط في اللذاذة والدسم، وربما انقلب — لفرط لذاذته، أو دسامته — زعافاً من السم.

﴿ ترجمات ونصوص ﴾ على أننا عُنينا بإثبات الترجمة المستخلصة من النصوص، واللآلاء المقتبس من الفصوص، وجعلنا — من الترجمة والأصل — حديقة وغابة، ليقضي من شاء من إحداهما — أو كلتيهما — آرابه. فان كانت الغابة أروع، فإنَّ الحديقة أروحُ وللغابة دروب ومسالك، وفيها إلى ذلك ظلمات حوالك، ولا بد لمخترقيها من دُربة ومهارة، وجُرأة وجسارة، والحديقة — بعد — أيسر مطافاً، وأدنى قطافاً.

واذا كانت للغابة أدلاَّؤها وروائدها، فللحديقة أصفياؤها ومريدوها، والناس — كما يقول شاعرنا — أخياف(٢) والطبائع ألوان وأصناف: هذا يبذل للمصاعب جهده ولا يدخر وسعهُ، وذاك أخو نزهة ومتعة.

هذا مولع بارتياد فسيح السهول المنبسطة وما يكتنفها من تلال، وذاك مغرًى بتسنم عالي القمم من شم الجبال، أحدهما يؤثر السلامة على النضال، ويقنع بصيد الأرنب أو الغزال، والآخر يهدف لتذليل ما صعب من المحال، ولا يرضى بما دون اقتناص الأسد الرِّئبال، ولكل وجهته(٣) وطريقته، ومذهبهُ ونزعتهُ، وكلاهما مستفيدٌ، وخيره مريدٌ.

﴿ كأسان ﴾ وإن رواد الأدب العلائي ومريدي بيانه، وعشاق إبداعه وافتنانه. ليؤثرون أسلوبه — كما أوثره — خالصاً أصيلاً، ويُفتنون بغابته الرائعة — كما أفتن — فلا يرتضون بها بديلاً.

وقد عرضنا — من الخمر العلائية — لونين. وقدَّمنا — من معتَّق صهبائها — كأسين. فمن شاء فليشرب مشعشعة ومن شاء فلينعم بها صرفاً، ومن أراد فليشرب كأساً واحدة ومن أطاق فليشرب ألفاً.

---

(١) السورة: الحدة، وقد سار الشراب، يسور، سوراً، وسورة، اذا أخذ الرأس.

(٢) الاخياف: الضروب المختلفة في الاخلاق والاشكال، والاخياف — من الناس — الذين أمهم واحدة، وآباؤهم شتى، يقال: «الناس أخياف»، أي لا يستوون. ويقال: إخوة أخياف، وهم الذين تختلف آباؤهم، وأمهم واحدة: ومنه قيل: «الناس أخياف» أي مختلفون. قال أبو العلاء في لزومياته:

«يريد خل خليلا كي يوافقه في الطبع، هيهات: إن الناس أخياف
لولا التخالف لم تركض لغارتها خيل، ولم تقن أرماح وأسياف

(٣) وجهة الانسان: كل مكان يستقبله.

عمر الخيام كما أعرفه

-٦-

X VI

لمحمود المنجوري

اهتمّ الانجليز بالرباعيات ، فأقبل الأدباء والشعراء على ترجمتها وشرحها ، ومن أدق الترجمات ترجمة و نفلد Whinfield سنة ١٨٨٣ في ٥٠٨ رباعية ومعها المتن الفارسي ، وترجمة جون باين Jone Payne في ١٥٨ رباعية، وتوجد تراجم أخرى ودراسات مختلفة بلغت المائتين بين شرح ونقد وترجمة . وقد ترجمها الى الفرنسية، غير المسيو نقولا ، المستشرق ن. هنري .

وترجمها الى الالمانية المستشرق بودنستيد Bodenstedt . ويقول العلماء الانجليز إنها من أدق الترجمات التي ظهرت في المكتبة العمرية وأوثقها ، وقام غير واحد من علماء الألمان بدراسات مختلفة في نواحي الخيام من شعر وفلسفة وعقائد وفلك ورياضة .

ولقد عثر الدكتور فردريخ روزن سنة ١٩٢١ على نسخة قديمة للرباعيات ، ضمت ٣٢٩ رباعية ، يرجع تاريخها الى سنة ٧٢١ هـ . ولقد وصفها الدكتور روزن بأنها قد تكون نسخة مطابقة لنسخة مفقودة كتبت سنة ٧٢١ هـ ، وذلك لان خطها وورقها على شيء من الجدة والرونق لا يتفق وقدم التاريخ المكتوب عليها ، ولقد نشر الدكتور روزن هذه النسخة سنة ١٩٢٢ بمقدمة قال فيها إنه قد وصل إليهِ من المحقق الفارسي الشيخ ميرزا محمد قزويني أمين المخطوطات الفارسية في الخزانة الاهلية بباريس صورة من مجموعة فيها ١٣ رباعية وجدت بين مجموعات أخرى في كتاب مؤنس الأحرار تاريخه ٧٤١ هـ ، ولقد أكَّد الشيخ ميرزا أن مجموعة روزن هي أقدم مجموعة لرباعيات عمر الخيام لأنها تسبق نسخة أوزلي بثلاث وعشرين ومائة سنة. وترجمها الى اللغة التركية المعلم فيضي، ثم نقلها بعده الأديب الشاعر مستجابي زاده عصمت ، ثم عبد الله بك جودت وهي ترجمة مشهورة ذائعة . ثم تناول الخيام الفيلسوف الشاعر الكبير رضا توفيق بك مع الاستاذ حسين دانش بالدرس والتحليل والترجمة ، ثم نهض من الشباب التركي الشاعر رفعت بك أحمد ، فترجم أربعين رباعية ، وترجم الاستاذ حسين رفعت بك ١٥٨ رباعية ، كما ترجمها إلى التركية الشاعر اللغوي المرحوم نور الدين بك مصطفى في مخطوط مودع مكتبته بمدينة حلوان ، ولم يطبع بعد، وقد اطلعت عليه

أما دراسات الخيام فيبدو الاهتمام بها في مئات الكتب والمباحث التي تناولته في نواحيه المختلفة ، وإنا لنذكر بعض المستشرقين الذين توفروا على هذه الدراسات :

(١) المستشرق الروسي رزوكفسكي، حقق الرباعيات واستقرّ رأيه على أن ٨٢ رباعية

ليست للخيام بل هي منسوبة اليه، وعرض - في دراسة - موازنة بين أساليبها وأخيلتها ومناهجها وبين أساليب بعض شعراء الفرس، وقال إن هذه الرباعيات المنتحلة إنما هي لتسعة وثلاثين شاعراً فارسيًّا، أمثال عبد الله الانصاري وأبي سعيد بن أبي الخير، والأنوري، والعسجدي، والعطار، والفردوسي، وجلال الدين رومي، ونصر الدين الطوسي، وحافظ الشيرازي.

(٢) ف. وبك F. Webek نشر كتاب الجبر لعمر الخيام وترجمه سنة ١٨٥١ في باريس.

(٣) م. كويل M. Quel نشر بحوثاً قيمة بمجلة كلكتا سنة ١٨٥٨ بلندن

(٤) ج نيقولا ترجم رباعيات الخيام نثراً الى الفرنسية عن نسخة طهران في ٤٦٤ رباعية سنة ١٨٨٧ بباريس.

(٥) ن. دول، ترجم رباعيات الخيام سنة ١٨٩٨ بلندن.

(٦) هـ. الين « » » » » »

(٧) ا. براون، له مباحث نشرها بمجلة الجمعية الملكية الاسيوية ١٨٩٩ بلندن.

(٨) د. رس » » » » » « ١٨٩٨ بلندن ومقدمة كتاب رباعيات عمر الخيام للمستشرق هـ باتسن. لندن ١٩٠٠.

(٩) ج. مارتولد، رباعيات الخيام سنة ١٩١٠ باريس.

(١٠) روزن، نشر مخطوطته التي يرجع تاريخها الى سنة ٧٣١ هـ في ٣٢٩ رباعية ببرلين سنة ١٩٢١

(١١) ا. روتفلد، عمر الخيام وتحقيق ميلاده وعصره سنة ١٩٢٢ لندن.

(١٢) ت. وير، مقالات في الشاعر عمر الخيام سنة ١٩٢٦ لندن.

(١٣) كريستنس. رباعيات عمر الخيام، تحقيق في صحة الرباعيات، وقد استقرَّ رأيه على أن ١٢٠ رباعية هي التي للخيام، وقد دارت دراسته في مجموعات مختلفة اشتمل بعضها على ٢٩ رباعية واشتمل البعض الآخر على ٨٠٠ رباعية في عهود تقع بين سنتي ٧٢١ هـ و١١٩٥ هـ. وقد طبعت هذه البحوث القيمة سنة ١٩٢٧ بمدينة كوبنهاجن.

(١٤) ب. سالي، عمر الخيام عالم وفيلسوف، سنة ١٩٢٧ بباريس.

(١٥) د. رس، مجلة مدرسة المباحث الشرقية سنة ١٩٢٧ لندن.

(١٦) فردريخ روزن، رباعيات عمر الخيام، لندن سنة ١٩٣٠.

(١٧) مجلة لندن المصورة، مخطوط لرباعيات الخيام، مايو سنة ١٩٣٠.

(١٨) المستشرق الأستاذ وبل مدير المباحث الشرقية في خزانة برلين، عثر في خزانة برلين على كتاب منثور لعمر الخيام اسمهُ (نَـوْرُوز نامه) أي (رسالة النَـوْرُوز) وجدها ضمن مجموعة لستة كتب مكتوبة في سنة ٧٦٨ هـ. وتقع رسالة الخيام هذه في ٥٤ صفحة تناول

فيها مباحث مختلفة ، كعيد النَّورُوز وتاريخ فارس ، وبعض فنون الصيد ، وعلم المعادن ، والخمر ، والأدب والجمال . وقد ذكر الأستاذ أحمد رامي في مقدمة ترجمته للرباعيات انهُ تحقق من إسناد هذه الرسالة إلى عمر، لأن سائر الرسائل التي احتواها الكتاب لمؤلفين عاشوا في عصر الخيام ، وأن كثيراً مما جاء في فقراته يشابه اتجاه الرباعيات فيما خصَّ الخمر والحب والجمال . ولم يذكر الأستاذ رامي أسماء هؤلاء المؤلفين الذين عاصروا الخيام ، ولم يقدم لنا نموذجاً من هذا الكتاب النادر ، وقد حاولنا البحث في القاهرة وفي خزائن البلاد الشرقية عن نسخة لهذا الكتاب فلم نوفَّق للآن . ولقد أشار الأستاذ رامي إلى لقطة أخرى عثر عليها في سنة ١٩٣٠ وهي مخطوط مصور لرباعيات الخيام بخط أحد سُكان مشهد سنة ٩١١ هـ اشتراه الأستاذ نجيب أشرف وأهداه إلى خزانة بتنا بالهند وفيه ٢٠٦ رباعية مكتوبة بخط جميل وفيه من الصور البديعة ما يجعله طرفة فارسية نادرة . ولا شك في أنه يتعين علينا إضافة هذه التحفة إلى قائمة المخطوطات التي وصلت الينا حتى الآن ، وهي :

(١) نسخة روزن ببرلين ، وبها ٣٢٩ رباعية سنة ٧٢١ هـ
(٢) نسخة كوركيان ، وبها ١٣ رباعية سنة ٧٤١ هـ وهي التي حققها الأستاذ ميرزا قزويني
(٣) نسخة بودليان بأكسفورد ، وبها ١٥٨ رباعية سنة ٨٦٥ هـ
(٤) نسخة الخزانة الأهلية بباريس ، وبها ٢١٣ رباعية سنة ٩٠٢ هـ
(٥) نسخة الخزانة الأهلية بباريس ، وبها ٣٤٩ رباعية سنة ٩٣٤ هـ
(٦) نسخة المتحف البريطاني بلندن ، وبها ٢٦٩ رباعية سنة ٩٧٧ هـ
(٧) نسخة المتحف البريطاني بلندن ، وبها ٥٤٥ رباعية سنة ١٠٣٣ هـ
(٨) نسخة خزانة برلين ، وبها ٢٣٨ رباعية سنة ١٠٥٨ هـ
(٩) نسخة جامعة كمبردج ، وبها ٨٠١ رباعية سنة ١١٩٥ هـ

(١٠) مخطوطة خزانة الجمعية الاسيوية بالبنجال ، لم نتمكن من تعيين تاريخها ، ولكنها طبعت في كلكتة سنة ١٨٣٦ ، وهذه المخطوطة هي التي أرسل صورة منها مستر كاول إلى صديقه فتزجرالد سنة ١٨٣٧ م للاستعانة بها على الترجمة (١) وهي تحتوي ٤٩٢ رباعية

(١١) مخطوطة طهران التي نقل عنها مسيو نقولا ترجمته النثرية سنة ١٨٦٧ م ولم نتمكن من تحديد تاريخها ، وهي تحوي ٤٦٤ رباعية

(١٢) مخطوطة تبريز ، طبعت سنة ١٨٦٨ م وتحتوي ٤٥٣ رباعية

(١٣) مخطوطة لكناو ، طبعت سنة ١٨٩٤ م في ٧٧٠ رباعية

---

(١) رس ص ٨٣ ، مقدمة رباعيات الخيام ، لندن ١٩٠٠

التّعريف والتّنقيب

نستحدث هذا الباب ونتبسط فيه إرادة أن نتدبر ما يتصل بقضايا الفكر وما يدخل في شؤون الذوق، فنجريه إلى غايتين: إحداهما مراجعة بعض ما يخرج في العلم والأدب والفن كتابةً أو أداء، والأخرى نشر ما انطوى من الضنائن المخطوطة أو المهملة. ومقصدنا أن يصبح هذا الباب مرجعاً للمستطلع السائل ومعرضاً للمستبصر الراكن. هذا ويشترك في إنشاء الباب نفر من أهل النظر وأعداء الهوى

بشر فارس

المشتمل

١ – الكتب

أقاصيص نقد بقلم صديق شيبوب

بشار بن برد – – بشر فارس

دراسة الشعراء – – ابرهيم عبد القادر المازني

من تراث مصر – – وهيب كامل

كتب ظهرت :

التعليم والتربية في بريطانية ، خواطر ساذج ، الشوامخ ، نداء القلب

٢ – الاستدراك

الحيوان ، الجزء الخامس بقلم الأب أنستاس ماري الكرملي

مجموع رسائل الجاحظ – عبد السلام محمد هارون

٣ – التعقيب

تبيين بقلم أسعد طلس

ردّ – *

١ – الكتب

• أقاصيص •

١٣ × ١٨½ سم ١٨٠ ص لجنة النشر للجامعيين القاهرة ١٩٤٤

إنَّ المجموعات القصصية نادرة عندنا ، لأن فن القصة جديد على الأدب العربي . ونحن لا نذكر منها غير كتاب « موكب الحياة » الذي نشرته « المقتطف » سنة ١٩٤٢ . أما مجموعة « أقاصيص » فقد اقتصرت على أدباء مصر . وقد أحسنت لجنة النشر للجامعيين صنعاً حين جمعت في كتاب واحد أقاصيص لكتاب تتباين مناهلهم بحيث يستطيع القارئ أن يتبين مختلف الأساليب التي يجري عليها بعض القُصاص عندنا ، وشتى الأفكار التي يتداولها كل واحد منهم ، والمواهب التي يتميز بها والوسائل التي يتناول بها فنه .

ضمت هذه المجموعة اثنتي عشرة أقصوصة لتسعة قصاصين مصريين .

والأقصوصة الأولى بقلم الاستاذ إبرهيم عبد القادر المازنى بعنوان « على الهامش » ولا شك ان أسلوب الاستاذ المازني المتدفق في استرساله ، القوي في بيانه ، ضمين لحسن الاداء ، ولطف الوصف والتمثيل ، ومداورة الحديث في رشاقة ، والتعبير في سهولة عما يريد الافصاح عنهُ من خلجات النفس واضطرابات القلب .

تناول الاستاذ المازني في اقصوصته بعض مشكلات الأسرة حين تنصرف الزوجة الى العناية بمنزلها في طواعية ولين ، مهملة شؤونها الخاصة من زينة وأناقة . يلقى الزوج فتاة تمثل في عينيه الجمال الذي يصبو اليه والزينة التي يرغب فيها فلا يلقاها في منزله . وقد كان الاستاذ المازني لبقاً في معالجة هذا الموضوع ذي الخطر الاجتماعي والاخلاقي ، كما كان لبقاً في تمثيل أشخاص الاقصوصة . ولكن طريقة سرد هذه الحوادث وما تخللها من تقلبات جعلاها أقرب الى نوع القصة المتوسطة في الحجم (نوفيل) منها الى الاقصوصة .

وللاستاذ محمود تيمور قصتان هما : « البديل » و « موعد » نجد فيهما ما قد ألفناه في أسلوب القاص الأديب : مزيج متوازن بين الواقعية والوجدانية في الموضوع ، ودراية ببناء الأقصوصة وحبك حوادثها ، الى سلاسة في الاسلوب ووضوح في أخلاق الاشخاص. وكثيراً ما يرمي الاستاذ تيمور الى تصوير العواطف من حيث لا يشعر القارئ ، كما فعل في أقصوصة البديل التي شاء أن يصور فيها عاطفة الأمومة وما لها من الحرمة في النفوس.

وتشبه أقصوصة « نداء البحر » ، وهي بقلم الأستاذ ابراهيم المصري ، أقصوصة « على

الهامش » في موضوعها . فقد عرض الكاتبان لمشكلة واحدة هي النضال في حياة الأسرة بين القديم والجديد ، وقد انتهيا ، أي الأستاذان المازني والمصري ، إلى حل واحد وهو أنه من الخير للمرأة ان تتطور وتتمشى مع آراء العصر لكي تستطيع الاحتفاظ بزوجها أو خطيبها. ونجد في « نداء البحر » صورة من الحياة المصرية على طريقة الأستاذ المصري : معارضة بين الماضي والحاضر ، بين الغرائز والتقاليد ، كثيراً ما يتصادم فيها الواقع والخيال .

وقد هاجم الدكتور سعيد عبده النساء في ادارة شؤون البيت ، وهي مهاجمة فيها الكثير من الدعابة والتهكم .

وجلا الأستاذ صلاح الدين ذهني صورة من الريف المصري يتخللها جمال مناظره وبهاء حقوله وهدوء حياته وبساطة فلاحيه . وقد طالعنا من قبل للأستاذ صلاح الدين مثل هذه الأقصوصة التي تحمل طابع الريف وتصف مشاهده وعاداته وتقاليده وأخلاقه .

وقد تفردت أقصوصة «ضباب ورماد» دون غيرها من أقاصيص المجموعة بأنها كتبت على طريقة رمزية . وقد شاء مؤلفها الأستاذ عادل كامل أن يصف فيها حالة العالم وانعكاسه على نفسه فحشر شتى الصور ليرمز إلى حالة الحرب القائمة ، ثم مثل الحياة في شكل فتاة أحبها فخضع لها حيناً ، وسعد بها حيناً آخر ، ثم غادرته فجأة على غير موعد . وقد أصاب الكاتب الأديب بعض التوفيق في خلق الجو الرمزي لأقصوصته ، ولكنهُ لم يبلغ مثل هذا التوفيق في الصور التي رسم الكثير منها على طريقة مذهب ما وراء الواقع لأنهُ لم يستطع أن يثير لها في نفس القارىء صدى يؤلف بينهُ وبين القارىء . والصور هي انعكاس العالم الخارجي على نفس الانسان . ومهمة الأديب أن يعبر عن هذا الانعكاس بالأسلوب الذي يجده خير وسيلة لخلق الصدى الذي ذكرناه في نفس قارئه . وقد شاء الأستاذ عادل كامل أن يدل في قصته على ان مظاهر العالم الخارجي موجودة في نفسه ، ولكنه لم يوفق تماماً للتعبير عن هذا المعنى بالصور التي اختارها فاضطر إلى الافصاح بعد أن حاول الاكتفاء بالرمز .

على أننا نود أن نشير إلى أن هذه المآخذ التي ذكرناها لا تنقص من فضل الأديب الشاب الذي شاء أن ينهج نهجاً لم يسبقه اليه في الأدب العربي الحديث إلاَّ أفراد ، ويكاد الناجحون منهم يُعدون على أصابع اليد ، نذكر في طليعتهم صاحب « مفرق الطريق » و« سوء تفاهم ».

أما الأقاصيص الأخرى فهي « شهرزاد » بقلم الأستاذ محمد فتحي أبو الفضل ، وأقصوصتا « مائة جنيه » و « عودة سنوهي » بقلم الأستاذ نجيب محفوظ ، وأقصوصتا « الغاية تبرر الواسطة » و « حلم آثم » بقلم الأستاذ عبدالحميد جودة السحار . وهذه أول مرة أحظى فيها بمطالعة أقاصيص بقلم هؤلاء الأدباء .

وإذا كان من الصعب الحكم على كاتب من خلال أقصوصة واحدة أو أقصوصتين فاننا نلاحظ في ما طالعناه لهم في هذه المجموعة مواهب في التأليف القصصي ومعرفة بحسن البناء وتسيير الحوادث ووصف مختلف الأحاسيس ، ولكنه يعوزها الكثير من العمق والاتساع في هذا الوصف الذي ذكرناه . ففي « شهرزاد » وصف للشباب حين يلهو ، وحين يشتاق ويرغب ، وحين يحزن ويزهد . وفي « مائة جنيه » موازنة مؤلمة بين ضعة نفس نجدها في الأغنياء البخلاء وعلو نفس نشهدها في الفقراء المستقيمين . وفي « الغاية تبرر الواسطة » نجد صورة للحياة اليومية تحاك حولها حادثة زواج.

وجملة القول أن القارئ يجد في كل واحدة من هذه الأقاصيص التي أشرنا اليها فكرة تسيّر القصة وإحساساً يدبرها .

الاسكندرية

صديق شيبوب

• بشار بن برد • بقلم ابرهيم عبد القادر المازني

١٣½ × ١٩ سم ١٣٢ ص لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية القاهرة ١٩٤٤

على الناقد أن يتلقى الكتاب الخارج الى الناس على النحو الذي قصد صاحبه إليه ، فليس يحسن به أن يرقب ما ترف إليه نفسه ويرضى به ذوقه ، فيتشبث بما دار لمخيلته وقام في وهمه . يتلقى الكتاب على وجهته وغايته فينظر ما يكون قدر الوجهة وما يكون خطر الغاية ، ثم يتبصر مدى بلوغ هذه بفضل تلك

فلقد كان في وسع المؤلف أن يسترسل في سيرة بشّار فيدفع إلينا قصة شاعر زخرت حياته بالنوادر والطرائف وغصَّ عهده بالفتن في جانب السياسة والدين والاجتماع . ولو كان صنع لجاء الكتاب نابضاً ، ذلك أن بالمازني حذقاً لسرد القَصص . إلاَّ أنه مال عن فن الاسترسال ، وإن كان ممن يحكمه ، فطرق باب النقد الصريح . دخله متحلياً بصفتين ، لا أجد بدًّا من التنويه بهما ، وبخاصة في زمن كادت مقاييس النطق تضيع فيه أو تسقط بين أيدي فريق من الكتبة المقتحمين والمرتجلين .

أعرض المازني عن آراء من سبقه في شعر بشار وأسقط موازينهم وأهمل أقوالهم ، فنظر بعين البصير الذي تصفح آداب الفرنجة فضلاً عن آداب العرب ، وهو يذكر أنه ابن المئات العشرين لا المائة الثامنة أو التاسعة — هذه صفة . والصفة الأخرى رفعُ المازني عمود الشعر فوق الأغراض الدنيوية، ثم غضبه لجلال الفن من جهة وعزة الانسان من جهة . فالى هاتين

الصفتين تُـرد أقوال له في بشار ، وهي أقوال فيها إقدام وفيها علاء : ودونك مثلاً : «ولعل الأشبه بالصواب أن نقول إن معاني بشار — ومعظمها وسط — كثيرة في كلام من سبقوه ومن جاءوا بعده ، وهي ليست من البراعة أو العمق بحيث لا يعقل أن تخطر على البال . واذا ذكرت ان كل شاعر كان يحفظ كلام من سبقوه ويحرص على الاحاطة به فانك خليق أن لا تستغرب هذا التشابه الكثير بين معاني المتقدمين والمتأخرين » ص ١١٥ . تلك غمزة لأسلوب شعراء العرب في الأخذ والاقتباس والمحاكاة والمعارضة ، وهي غمزة حقة — ثم قوله : « إن القليل الباقي ... من شعره ... لا يكفي للقول بأنهُ زعيم الشعراء المحدثين ، فان هذه دعوى عريضة لا تقبل بغير دليل » ص ١٦ . ثم قوله : « فلم تكن مزية بشار سموّ المعنى وقوة الخيال أو صدق العاطفة أو اخلاص السريرة أو نفاذ البصيرة ، وانما كانت قدرته على الأداء الجيد . . . فهو مشغول أبداً بمطالب الجسد وشهوات البدن ، وبعيد جدًّا أن يكون ذو الطبيعة الحيوانية ممن تستغرقه العاطفة أو تستولي عليه الفكرة ، ولهذا لم يرتق في شعره قط إلى عليا مراتب الفن » ص ١١٢ . فهذه ثورة يثورها ابن المئات العشرين على أحكام الأصمعي وأبي عبيدة والجاحظ وغيرهم ، وبصرهُ بالفن أعلى عندي وأسلم ، وعلمه بـ « سلم القيم الانسانية » أوفر وأشرف .

ولعلَّ وراء تلك الثورة غضبَ المازني على بشار لانهُ يحط من جلال الفن ويغض من عزة الانسان بالهجاء الذي آثره ووقف له ملكته. يقول المازني : «واذا كان لم يجىء في الهجاء بشيءٍ من البراعات فلا عجب ، فما كان الهجاء عنده إلا زجراً وتخويفاً . وأكثره فحش ، لاسرافه في البذاءة التي تشبه بذاءة العامة والسوقة والسفلة ، ولم تكن سلاطته مظهر قوة ، بل آية ضعف وعجز . . . وكان في أبي معاذ جبن وذلة » ص ١١٢ ، ١١٣ ، ٣٢ .

إني ليبدو لي أن المازني — وأنا بخلقهِ عارف — يمج بشاراً « لأنه كان اتخذ الهجاء تجارة ، وجعل منهُ وسيلة للابتزاز بمخافة التشهير Blackmail فكرهه الناس جميعاً » ص ٥٢

من أجل ذلك كرهه المازني أيضاً . والحق أن الهجاء صار من مخزيات أدبنا لما خرج عن غرضه الأول ، وقد كان لوناً من ألوان العقاب الاجتماعي ينزله الشاعر باسم القبيلة على من ذلّت ساحته وركّ عرضه ، أو ضرباً من ضروب الكهانة أو ما يقارب الكهانة يعمد اليهِ الناظم في الدعاء على العدو (راجع ما سطرتـه في ذيل دائرة المعارف الاسلامية ، ط هولندة ، مادة هجاء) . انحط الهجاء عن هذا الجانب المنزَّه عن الفردية والمادية وأمسى أسلوباً من أساليب اللئام . تلك مسبّة . ومما يورث الحزن أن هذا الهجاء الساقط المرذول أثر في الأدب العربي كله شعره ونثره ، حتى إنك لتجد من لا ينفكّ يلجأ اليه وفي متوهَّمه

أنهُ ذو هَولة وذو صولة ، والتحقيق أنه سفيه عاجز .

وكأني بالمؤلف الغاضب على السفيه العاجز أحسّ عند خاتمة كتابه أنه ظلم بشاراً وبالغ في التجني عليه ، فانبرى يلتمس له المعاذير ، فوصف الاضطراب الذي كانت تعانيه الملّـة في أيام بشار وألمع إلى ما ذاع في بعض الأقطار من مبادئ الإباحة ومذاهب الإلحاد إلى فتن سياسية ودينية لفّـت بشاراً في تيارها فسوّلت له المجون والزندقة وزينت التجرؤ والتمرد .

أجل إن المازني — بفضل الليانة التي في حاشيته والعذوبة التي في لسانه — ما استطاع أن يحب بشاراً وأن يحببهُ إلى قارئه ، فبدا حكمه قاسياً وجاء غضبه في صورة ظلم . ولعلّ المازني في كل ذلك غلَّـب طبعه على فكره وأقام السماحة التى في عوده مقياساً ينصبه لعجم صاحبه ـ بل عدوه ـ بشار . قد يكون تجنى عليه ـ ولا سيما إن شعر بشار لم يقع إلينا منهُ إلاَّ اليسير ـ ولكنهُ تطالب الصدق الذي أصبحنا ننشده في الأدب، وترسَّم السموّ الذي نعدّه اليوم جوهر الشعر .

• • •

ولم يرسل المازني حكمه إرسالاً . هو يعرف كيف يتدبر الشعر ويتصفح الخبر ليستشف روح الشاعر . اقرأ الفصل الذي كتبه في ذهاب حاسة البصر وما يولد ذلك في النفس والملكة (ص ٢٦ وما يليها) ، والفصل الذي استخلص فيه جبن بشار وعجزه (ص ٣٤ وما يليها) ، ثم الفصل الذي توصل فيه إلى أن بشاراً أميل إلى انتهاب العيش منهُ إلى التأمل، وأروع في وزن الخسارة والربح منه في إيثار مروءة أو رعاية أدب (ص ٥٥ وما يليها) . في تلك الفصول نفاذ، كما أن في غيرها دقة (ص ١٠٤ مثلاً، عند الكلام في سقوط الهجاء على يد بشار) . وكان في الود أن نصيب هذا النفاذ وتلك الدقة أيضاً في فصلين اختصر المؤلف أحدهما وهوّن الآخر . أما الفصل المختصر فهو الذي عرض فيه المؤلف حالة البصرة في أيام بشار خاصة ، فالحديث هنا يطول ومن مستطرَداته الواجبة ما وقع بين بشار والمعتزلة ، وحقُّ هذا الفصل أن يقع في صدر الكتاب لا في ذيله . وأما الفصل الذي هُـوّن فموضوعه زندقة بشار . ومجمل رأي المؤلف أن « تهمة الزندقة إنما جاءته ولصقت به من طول لسانه على الأكثر دون فعله » ص ٥١ . وأكبر الظن أن المؤلف لم يذهب في تعرف حقيقة الزندقة في العهد الاول أيام كان « العارف » يتعقب الزنادقة بأمر الخليفة ، فقـتل فيمن قتل بشار وابن عبد القدوس . وهذه الزندقة فيها شعوبية وفيها مانوية ومزدكية . ثم صارت الزندقة إلى معانٍ أخر ، منهـا الالحاد أو « حرية الفكر » وهو المعنى الذي اقتصر عليـه المؤلف (راجع مفاتيح العلوم ، ودائرة المعارف الاسلاميـة ، ط هولندة ، مادة زنديق ،

و Browne التاريخ الأدبي لفارس ج ١ ص ١٥٩ — ١٦٠) . وفي زندقة بشار ونعتها كتب Nicholson في التاريخ الأدبي للعرب ص ٣٧٢ ، وفلب حِتّي في تاريخ العرب (بالانجليزية) ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ . هذا ومن قبلُ سلك صاحب رسالة الغفران بشاراً في الزنادقة وسلكه أيضاً ابن النديم في الفهرست .

• • •

وفي المازني فطنة للشعر يقظة ، يدل عليها اختياره لقصيدتين أنزلها منزلة الروائع احداها لبشار ومطلعها : قد لامني في خليلتي عمرُ ، والاخرى لابن الرومي وهي في رثاء وحيد المغنية ، ولا اعرف في أدبنا قصيدة تطاولها — وقد رأى الاستاذ الناقد أن يوازن بينهما ليميز الوحي الحسي من الوحي المعنوي . وهو في اختياره وموازنته أحسن . وكذلك كان شأنه في الموازنة التي عقدها بين ابي العلاء وبشار . غير أني كنت أرتقب من جانب المازني أن يبين قدرة بشار على الاستحداث في التصوير وتلك القصيدة بين يديه ، كذلك كنت أرتقب أن يذهب في الفحص عن طرائق بشار في التشبيه ، والبحث عن خصائصه في التعبير ، وهذه وتلك من نفائس بشار وعقائله . في ذلك استيفاء للدرس . هل أعجله موعد مضروب عن الذهاب ، هل حبست قريحتَه قلة الأوراق ؟

بقي أن المؤلف ذكر في فاتحة كتابه المراجع التي اعتمدها ، فأحسن في ذلك ، ولعل هذا يرشد غيره . فهل لي أن اجعل بين يدي المؤلف غيرها على ضآلتها ، فضلاً عما دونته قبل — والمعلوم ان أخبار بشار وأشعاره تتناثر في الكثير الأكثر من أسفار الأدب والتاريخ مما يفوت الاحصاء — : الشعر والشعراء لابن قتيبة ، القاهرة ١٣٥٠ ، ص ٢٩١ — ٢٩٣ . معجم الشعراء للمرزباني ، القاهرة ١٣٥٤ ، ص ٤١٦ . رغبة الآمل من كتاب الكامل للمرصفي ، القاهرة ١٣٤٨ ج ٧ ص ١١ — ١٣ ، ٥٨ . الامتاع والمؤانسة للتوحيدي ، القاهرة ١٩٤٢ ج ٢ ص ١٨٠ — ١٨١ ، ج ٣ ص ٣١ . البديع لابن المعتز ، انجلترة ١٩٣٥ ، ص ١ ، ١٩ ، ٤٣ ، ٥٠

• • •

وبعدُ فقد كتب الأستاذ المازني : « فان كنتُ أصبت فوفقت فيها ولله الحمد . وإلاّ فانني مستعد أن أتدارك النقص أو الخطأ متى تيسرت اعادة الطبع إذا تفضل عليّ القراء بما يقعون عليه من ذلك » (ص ٥).

أقيد هذه الجملة إكباراً لمسطرها ، في عهدٍ قد ورمت فيه الدعوى وانتفش النفج .

بشر فارسي

• دراسة الشعراء •

بدأ به المرحوم المرصفي وأكمله ابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي

١٧ × ٢٤ سم ٢٨٦ ص مطبعة الاستقامة القاهرة ١٩٤٤

هو كتاب في دراسة خمسة من الشعراء : امرئ القيس ، والأعشى ، والنابغة الذبياني ، وزهير ، والحطيئة ، بدأه المرحوم الأستاذ محمد حسن نائل المرصفي وأتم منهُ دراسة امرئ القيس والأعشى والنابغة ، وترجمة زهير ، ثم وافاه الأجل ، فتولى الأستاذان الابياري - وهو محرر بمجمع فؤاد الأول - وشلبي - وهو مدرس بالمدارس الأميرية - إكماله ، فشرحا معلقة زهير بن أبي سلمى ، وترجما للحطيئة ، وساقا مختارات من شعره .

تلقى المرحوم المرصفي علومه في الأزهر ، وكان زميلاً للدكتور طه حسين ، وصديقاً له لا يفارقهُ حتى كأنهما المعنيان بقول الشاعر :

وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتفرقا
فلما تفرقنا ، كأني ومالكاً لطول افتراق لم نبت ليلة معا

وكان شيخه في الأدب أيام الطلب المرحوم الشيخ سيد المرصفي العالم الأديب المشهور فاستفاد منه دقة وقدرة على تفتيش الكلام وإحسان النظر فيه ، ونفعته صحبته لطه فاتسع أفقه ، واستطاع أن ينظر في الأدب القديم من الناحية التي هي أضوأ له ، وكانت فيه حذاقة ولوذعية وبصر .

وترك الأزهر ، كما تركه طه ، قبل أن يستوفى حظه من علومه ، ويظهر انهُ ضاق صدراً بأسلوب التعليم في الأزهر ، وكان ذا يسار فلم يضره ذلك ولم يشق عليه ، غير أنهُ أبى القعود والكسل ، فتولى تدريس اللغة العربية في مدرسة الفرير ، وأصدر طبعة أنيقة بالشكل الكامل والصور لكليلة ودمنة ، ثم نفض يده من التعليم، وتولى إدارة جريدة السياسة زمناً طويلاً ، وفي آخر عهده بها ، أصدر مجلته الشهيرة « الجديد » على غرار حديث من حيث الشكل والموضوع، ثم أردفها بأختها « شهرزاد » وقصرها على القصة ، فكانت أول مجلة في بابها تصدر في مصر .

وعكف في أثناء ذلك على « دراسة الشعراء » فكان في فترات الراحة وخلو الذرع يقرأ ويكتب ، فأتم ، كما أسلفنا ، امرأ القيس والأعشى والنابغة وترجمة زهير ؛ وشرع في الطبع قبل أن ينتهي من الكتاب ، ولكنه مرض وثقلت عليه العلة ، ثم وافاه الحين ، فظلت

الملازم المطبوعة مهملة لا يدري بها أحد ، حتى تذكر السيد مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية ما كان يعرفه من أمر هذا الكتاب فاستنقذه واستعان الأستاذين الابياري وشلبي على إتمامه ، ففعلا وتوخيا ، ما استطاعا ، منهج المرحوم المرصفي في البحث .

ولكن الغريب أنهما فاتهما أن يقولا كلمة في المرصفي ، فلست ترى أكثر من اسمه على الكتاب ، وكان في وسعهما أن ينصفاه — لولا السهو — بنبذة وجيزة تعرف القراء به ، وتخرجه من هذه الظلمة ، فقد كان رحمه الله على نشاطه وكثرة دخوله في الأمور العامة ، وطيب مخالطته للناس، جم التواضع يؤثر الانزواء ، وينفر من الظهور، ويأنف أن تأخذه خفة من الزهو ، فجنى عليه هذا ، فلما وافاه الأجل لفّ عليه كفنان .

وثم مسألة أخرى : هي أنّا لا ندري لماذا آثر الأستاذان الابياري وشلبي الحطيئة خاصة ، وأهملا بقية شعراء المعلقات أو المطولات كما تسمى أحياناً ؟ وكان المعقول ، والمنتظر أن يسيرا على الدرب ، فيتناولا بالدرس واحداً آخر - على الأقل - من أصحاب المعلقات إذا كانت أزمة الورق تحول دون ما هو أكثر .

وطريقة المرصفي في البحث هي أن يبدأ باثبات « عناصر الموضوع » أي باجمال لما سيفصله فيما بعد ، ثم يسوق ترجمة الشاعر ويقول ما يعن له في خصائص شعره ، وطبقته ، وأثره ، ثم يتناول معلقته ويصفها قبل أن يشرحها ، بيتاً بيتاً - لفظاً ومعنى .

وهذه الطريقة يشبه أن يكون الغرض منها التيسير على طلاب الأدب، فإن في الكلام دقة مع الايجاز ، وعناية بجلاء كثير من الغوامض التي يشق بها المبتدئ ، وله الى جانب هذا آراء كثيرة في الادب والنقد ، وتعليل النزعات ، وأثر البيئات المتفاوتة ، والى أي حد يجوز استخلاص اختلاق الشاعر من شعره ، وغير ذلك مما لا يتسع المقام لبسطه .

أما الأستاذان الابياري وشلبي فقد جريا على طريقته في الترجمة وشرح الشعر ، ولكنهما لم يتوسعا كتوسعه في البيان ، وليس لهما مثل ما له من الآراء والأحكام ، وقد اكتفيا من الشرح بتفسير الالفاظ دون معاني الأبيات الاّ في الندرة القليلة .

وفي الكتاب هنات طفيفة لعلها من اغلاط المطابع، وهي أوضح من أن تحتاج إلى إشارة .

رحم الله المرصفي . كان على شيء غير قليل من الادب والعلم، ولكن تواضعه حجب فضله، وكان رحب الجناب وافر الخير ، وما من أحد من اخوانه الاّ وللمرصفي عليه فضل من سجايا النفس ومروءة القلب ، فحرام أن يخرج كتابه وليس فيه من ذكره إلاّ اسمه على غلافه ، ولو كان هذا قبراً لطمعنا أن تخط على صواه كلمتان وسنتان !

ابرهيم عبد القادر المازني

• تراث مصر • The Legacy of Egypt

نشره س . ر . ك . جلنفيل S. R. K· Glanville

١٢½ × ١٧ سم ٤٢٤ ص أكسفرد سنة ١٩٤٢

هذا كتاب يحتاج إليه ويستفيد منه العالم في الدراسات المصرية القديمة كما يستفيد منه ويحتاج اليه غير المعنيين بها . ومع أن جل ما فيه من معارف متفرق في بطون الكتب، فإن جمع شتات هذه المعارف وإبرازها في لوح واحد كفيل بأن يبعث في ذهن القارئ صورة واضحة الأجزاء للتاريخ والحضارة المصرية .

وأصحاب الدراسات القديمة إطلاقاً يجدون فيه نفعاً وعلماً أيضاً . ولو أنهم جميعاً يعرفون أن طاليس وصولون وفيثاغورث ودمقريطس الأبدري وأفلاطون قد تلقوا كلهم العلم عن كهنة المصريين .

ومما يدعو إلى الأسف حقًّا أن يكون الفصل الأول « التقاويم وعلم التأريخ » غاصًّا بكثير من سبحات الخيال وسانحات الخاطر ، بدلاً من أن يعنى فيه صاحبه الأستاذ سِوِل Sewell بالحقائق التي تقوم على صحتها أدلة ثابتة . وإذ ليس هنا مجال استقصاء وجدَل ، يكفينا أن نشير إلى قوله إنه في العهد الذي أخضع فيه مينا مصر السفلى كان سكانها يقوّمون الزمان بالسنة الفصلية التي تبدأ بعد خمسة وأربعين يوماً من الاعتدال الخريفي ، وهذا التاريخ في محفوظ عيد « بعل » المسمى عيد « سامحين » ، ولا يزال أثره يجر أذياله في بريطانية . ثم يقول (ص ٧) : « ومن المحقق أن عيد رأس السنة هذا قد أدخله في بريطانية مستعمرو مقاطعة كورنوَل Cornwall الذين نزحوا من حوض البحر المتوسط . وإذن فقد وقفنا على برهان على الصلة العلمية بين مصر وشعوب البحر المتوسط كانت فيما نرى نتيجة للاتصال التجاري »

هذا ومما لا شك فيه أنه لا يوجد على ما نعلم في بريطانية دليل مادي واحد على أنه قد وصل اليها القوم الذين نسميهم الفينيقيين ويسميهم صاحبنا هنا « الكنوسيين » نسبةً إلى « كنوسس » Knossos.

ولندع عالم الفروض ولنولّ وجوهنا شطر عالم الحقائق المقررة التي يعرضها هذا الكتاب أحسن عرضٍ وأجمله . فأظهر ما أورثته مصر العالمَ وأبقاه هو بالطبع التقويم . وقد كان قديماً من ٣٦٥ يوماً ، فصحح فيما بعد فصار ¼ ٣٦٥ يوماً ، وهذا نقلهُ يوليس قيصر إلى رومة أخذاً باشارة أحد علماء الاسكندرية ، ثم نقحه أجسطس ومن بعده البابا

جريجوريُس التاسع سنة ١٥٨٢ وما زال معمولاً بهِ إلى الآن .

وأشاعت مصر في العالم أداتيَ المعرفة : الحروف الهجائيـة والورق . فقد أوضح الأستاذ جردنر Gardiner في مقاله « الـكتابة والأدب » أن الحروف الهجائية الفينيقية التي استقى منها الغرب كله حروفه مأخوذة من الرسم السينائي ، وهـذا بدوره مأخوذ من الصيلغريفية . ولا غرو أن يكون الأستاذ جردنر حريصاً على عرض هـذه النظرية أحسن عرض، فهو صاحبها وأول من نادى بها قبل خمسٍ وعشرين سنة . ولم يقطع الكاتب برأي في صلة الأدب المصري بالأدب اليوناني ، واكتفى أن رجع إلى نظرية الأستاذ پيت Peet التي تقول بأنه لولا مصر لكان من المشكوك فيه أن يصل الأدب اليوناني إلى ما بلغه من سموّ

أما الورق البردي فقد كانت مصر مصدره الوحيد في العالم القديم ، وظلت تزوِّد بهِ الامبراطورية الرومانية من انجلترة غرباً الى الفرات شرقاً ومن الدانوب شمالاً إلى الشلال الأول جنوباً ، وذلك إلى مدخل العصور المظلمة .

وما كان لليونان أن يقيموا في ميدان العلم والطب هذا البناء الشامخ المنيف، لو لم يتخذوا من مصر وعلومها وفنونها أسًّا يبنون عليه . فالساعات المائيـة التي عزي اكتشافها إلى اليونان كانت معروفة شائعة الاستعمال في مصر منذ سنة ١٣٥٠ ق . م ، إن لم يكن قبلها . ولم يكن أخذ الطب عن المصريين دأب اليونان وحدهم ، فقد شرع الفرس في استحضار الأطباء من مصر . ولا غرو فالمصريون أول من ألَّـف الـكتب الطبية ، ودوَّن الملاحظات التشريحية، وأجرى التجارب في الجراحة . وهم أول من استعمل الجبائر واللفائف والضمادات . وأما اصطلاحاتهم الطبية فعلى غاية من الدقة . ومن الممكن تتبع التأثير المصري في كتب الطب اليونانية واللاتينية والعربية والسريانية والايرانية ، والـكتب الاوربيـة في العصور الوسطى . هذا إلى أن ألوان العلاج الشعبية في أوربة والشرق الأدنى ترجع في جملتها الى أصل مصري .

وفي فن البناء أورثت مصر العالم من الأعمدة ما يسمَّى الآن بالطراز السابق للدوري Pre-Doric ويوجد هذا الطراز في سقارة ومقابر بني حسن . وأشاعت استعمال اللـبِن ، وهذا ذهب إلى أسبانية ومنها إلى أميركة الأسبانية ومعه اسمه المصري دِيب الذي صار في اللغة القبطية طوبي ، وفي العربية طوبه ، وفي الأسبانية أدربى .

أما في الناحية الدينية فيقرر الأستاذ ايسترلي Oesterly في مقاله « مصر وبني إسرائيل » أن تأثير الديانة المصرية في اليهودية ضئيل جداً (ص ٢٣٨) . ويبدو لنا أن في هذا التعميم بعض الغلوّ ، نظراً الى ما بين الشعبين من قرب وإلى هجرة اليهود الى مصر في فجر التاريخ

اليهودي ، وإلى الصلات السياسية التي ظلت وطيدة بين مصر واليهود إلى آخر عهد الملوك اليهود ، وإلى إقامة شعائر الدين المصري في المقاطعات المصرية في فلسطين وسورية أيام اتساع الامبراطورية المصرية .

وكنا نود أن يبين لنا الكاتب مبلغ تأثير التوحيد المصري الذي ساد في عهد أخناتون في الفكر اليهودي . وهذا التأثير واضح في الأدب اليهودي في سفر « أيوب » و « الجامعة » و« المزامير » و« الأمثال » . ثم ذهب الكاتب إلى أن « الأمثال » مقتبسة من تعاليم أمنمحتب فعقد بينهما معارضة نفيسة (ص ٢٤٦ وما يليها) . وليت الناشر حرص على ألاّ يتكرر بحث مسألة واحدة في موضعين : فقد تناول الأستاذ جردنر أيضاً موضوع تأثير « تعاليم امنمحتب » في سفر « الأمثال » (ص ٦٨) .

وفي الدين المسيحي تركت مصر آثاراً لا تبيد . فكنيسة الاسكندرية تقرر أن خلق العالم كان في سنة ٥٤٩٨ ق . م . وهذا التاريخ مأخوذ من مانيتو الكاهن المصري الذي عاش في سمنود في القرن الثالث قبل الميلاد . والتقشف والرهبنة انتشرا من مصر الى العالم ، وكلمة « ناسك » في اللغات الاوروبية hermit مأخوذة من أصل يوناني معناه الصحراء — صحراء مصر . وأخرجت الاسكندرية كثيراً من آباء الكنيسة أمثال أوريجن وكلمنت الاسكندري وآريوس وأثناسيوس ، وفيها نبت المذهب الأجنوسطي.

وذهب الاستاذ جونز Jones في مقاله « مصر وروما » إلى أن تأليه المصريين لملوكهم الذي ورثه البطالمة عن الاسكندر قد أخذ به سائر ملوك العالم اليوناني ومن بعدهم الرومان ، وإلى أنه لم يزُل بدخول الدولة الرومانية الشرقية في المسيحية ، بل كان هذا التأليه منشأ حق الملوك المقدس الذي انسحب إلى العصر الحديث من القرون الوسطى (ص ٢٩١) . وعندنا أن حجج الأستاذ جونز مجتلبة بعض الاجتلاب ، وأن حق الملوك المقدس ما كان لينشأ لو لم تتفق الرواقية والمسيحية على إعلاء قدر الإنسان والارتقاء بهِ إلى المجد الإلهي في القرن الثاني بعد المسيح .

وبعد ، فالكتاب واحد من سلسلة ، وقد جاءَ الجزء الخاص بتراث مصر الاسلامية ضئيلاً في الكتاب ، لأن الموضوع قد درس من قبل في « تراث الاسلام » وهو منقول إلى لغتنا وليس هذا الكتاب الذي وصفناه هنا بمنقول . وهو صورة شريفة للتعاون العلمي الذي كان يسود العالم قبل هذه الحرب ، فقد اشترك في وضعه جمهرة من العلماء في مختلف الأقطار .

وهيب كامل

• **التعليم والتربية في بريطانية** • بقلم **هيلس** نقله الى العربية **حسن احمد السلمان**

١٤ ½ × ٢١ ½ سم ١٠٢ ص مطبعة المعارف بغداد ١٩٤٤

للانجليز طريقة خاصة في تربية أولادهم وتغذية ضمائرهم وتنشئة عقولهم . وذلك مما جعل لهم طابعاً متميزاً في أحوالهم وأعمالهم . ومن يتلُ هذا الكتاب يبلغ بعضاً من أسباب تلك الأعمال وأسرار تلك الاحوال . فإنهُ يبسط في وضوح أساليب التعليم وأنظمة التجهيز للحياة على اختلاف أنواعها ومراتبها من المدرسة الأولية العامة حتى الجامعة سواء الحديثة أو القديمة . ونحب أن نرفع الى أعين قراء العربية ما يتبين من سطور هذه الرسالة ، وهو أن أمر التربية والتعليم في بريطانية موكول إلى أصحاب الشأن ومراقب من جانب الرأي العام ، فليس للحكومة اليد العالية في التشريع ولا التوجيه.

*(١)

• **خواطر ساذج** • بقلم **خليل تقي الدين**

١٢ ½ × ١٧ ½ سم ١٥٤ ص دار المكشوف بيروت ١٩٤٣

هي خواطر كان ينشرها الأستاذ خليل تقي الدين في مجلة « المكشوف » البيروتية مرة كل أسبوع بتوقيع « ساذج » ، يعبر بها عما يجيش في نفسه على أثر حادث أو مشاهدة أو اطلاع . وهو في بعض أغراضها ينفذ إلى الصميم بعين الأديب وفكر المتأمل وروح الشاعر المتصوف .

وقد عاء صاحب مجلة « المكشوف » الأستاذ فؤاد حبيش أن يخرج هذه الخواطر في كتاب ، فأحسن . وقد ذكر المؤلف في مقدمته أنهُ لما كتب خواطره كان أبعد الناس عن الظن انها ستضمُّها يوماً دفّتا كتاب . هذا وكان المأمول ان يرجع الى خواطره فينظر في بعضها ليساوي بينها جميعاً في المرتبة لأن فيها ما هو وليد حادث عابر .

*

• **الشوامخ — ١ — امرؤ القيس** • بقلم **محمد صبري**

١٦ × ٢٤ ½ سم ١١١ ص دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٤٤

سلسلة بدأها الدكتور محمد صبري بكتاب في امرئ القيس ، وسيتلوه آخر في البحتري ،

---

(١) النجم يرمز الى اسم من أسماء المتعاونين على إخراج الباب .

ولم يبين القاعدة التي جرى عليها في اختيار الشعراء ، والداعي إلى ايثار بعضهم دون بعض وهم كثر ، ولعله سيفعل في الجزء التالي .

وقد ساق في هذا الكتاب حياة امرئ القيس ووصفها على قدر ما يتيسر من أخباره وشعره ، ثم أورد رأي القدماء فيه ، وعقب برأيه هو . وخير ما في الكتاب عناية الكاتب بملكة التصوير والوصف التي امتاز بها هذا الشاعر ، وقد أنصفهُ ووفاه حقهُ ، وأحله محاله ، وان كان قد غلا قليلا حين رفعهُ الى مقام لا يدانيه فيهِ أحد من شعراء الجاهلية ، جميعاً . على أن هذا لا يغض من قيمة بحثه على الجملة ، ولكن القصد خير وأولى على العموم .

*

• نداء القلب • بقلم: الياس أبو شبكة

$12\frac{1}{2} \times 17\frac{1}{2}$ سم ٦١ ص دار المكشوف بيروت ١٩٤٤

ديوان شعر خفيف في الحجم ، وكذلك هو في الموضوع والتخيل والتصوير والتمثيل . والظن أن مقطوعاته للغناء ، أو كأنها له ، نعني الغناء الهين الرخو . وهذا اللون من النظم افتتن به نفر من شعراء مصر وبعض شعراء لبنان وغيره . وهو يلذ عامة « السامعين » ولا سيما الأوانس العواشق . فهو يدور على الحب طبعاً ، وما يلتف على الحب من رشف خمر وطلب لهو ثم من بكاء وسهاد . وصاحب « نداء القلب » الذي يقول في سذاجة لطيفة « كان لي في الغرام قلبٌ بغي (كذا) » ص ٣٨ ، ينشدنا هذه القصيدة الخفيفة (مع كراهة لفظ وارد في البيت الأول والأخير ، في الغناء خاصة حيث التقطيع) :

يا حب عذِّبْ عذّب فؤادي وكل ما بي من العذابِ
يذوب حبًّا على كتابي يفيض نورٍ من الشعور
على مدادي . . . . يا حب عذِّب عذّب فؤادي

ونحن نعلم أن في المهجر وفي لبنان اليوم لوناً آخر أدخل في الشعر ، يضم بدائع أو حسنات معنىً ومبنى . فقد قرأنا لايليا أبي ماضي ولشفيق معلوف ثم لميخائيل نعيمة . وقرأنا أيضاً مقطوعات لسعيد عقل ويوسف غصوب وكذلك لصلاح الأسير ولهذا الشاعر نفسه أيضاً .

*

٢ – الاستدراك

• الحيوان • الجزء الخامس **للجاحظ**

بتحقيق وشرح : **عبد السلام محمد هارون**

١٧ × ٢٤ سم ٦٣٩ ص مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٤٣ *

— وذكر الكاتب الناشر بردي الجرادة والجندب فقال : هما رجلاه . والصواب أنهما جناحاه لأن البرد الثوب المخطط ، والمخطط في الجراد والجندب والفراش ونحوها : الجناح والجمع أجنحة .

— وجاء في متن الجاحظ ص ٥٦٢ : « يزعم أن الدبا يريد الخضرة ، ودونها النهر الجاري » . ونظن أن هناك سقطاً وهو « يريد الخضرة ولو حال دونها النهر الجاري » . على أن الكلام على ما هو مثبت قد يخرج أيضاً تخريجاً صحيحاً .

— جاء ذكر القفعة في ص ٥٦٦ وح ٣ — وهي كلمة استعارها منا الفرنسيون وسموها Cabas.

— وذكر النقل بالفتح ص ٥٦٦ وح ٤ وهو « ما يعبث به الشارب على شرابه ويتنقل به . ويقال أيضاً بالضم . وقيل الضم عامية » . اهـ . وعندنا أن الضم هو الأفصح لأنه معرب من اللاتينية Nucleus وهو كل ثمر ذي نوى يتنقل به عند الشراب .

— وقال المحرر في ح ١ من ص ٥٩١ : « فئام جماعات كثيرة . لا واحد له من لفظه » . قلنا والذي عندنا أن الفئام جمع فئة وأصل فئام : فئان بكسر الفاء وفي الآخر نون وهو أقدم جمع معروف في لغتنا . ومثل ذلك في العبرية فيقولون في جمع سروف : سروفيم وفي جمع كروب : كروبيم . ثم نقلوا الميم إلى النون كما أن أصل التنوين تمييم . وكنا قد وضعنا مقالاً ضافي الذيل في مجلة المشرق البيروتية قبل نحو خمسين سنة وهي ليست أمامنا لنحيل القارئ عليها . ومثل هذا الجمع القديم قول اللغويين في جمع أرض واوز وسنة : ارضون

---

* راجع الفصل الاول والثاني من هذا الاستدراك في عدد مايو ويونيو سنة ١٩٤٤

وأوزون وسنون إلى غيرها وهي كثيرة . فهذا الجمع أقدم من قولهم « أراضٍ واوزات وسنوات ».

— وجاء ذكر البواقيل التي واحدها البوقال في هذا البيت الوارد في ص ٥٩٧ :

فمن رأى النيل رأي العين من كثب فما أرى النيل إلاَّ في البواقيل

قال المطرز الموشي : « البواقيل : جمع بوقال ، بضم الباء وهو كوز بلا عروة » .

وجاءَ في أساس البلاغة ، طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٢٢ م في الجزء ١ : ٥٨ :«وفلان لا يعرف البواقيل ، من الشواقيل : فالباقول (كذا) الكوب . والشاقول: عصا قدر ذراع في رأسها زجٌ ، يشد اليها المسَّاح (١) حبلهُ ، ثم يرزّهُ في الأرض ، ويتضبطها حتى يمد الحبل» وهو من واضح الخطأ . وذلك لأسباب منها : ان البوقال ذكره كثير من اللغويين ولم يذكر أحد الباقول .

ومنها : ان الغربيين استعاروها منا وقالوا : Bocal ولم يقولوا Bacoul .

ومنها : اننا استعرناها من اليونانية Boukalis ولو كان الفرنسيون استعاروها من اليونانيين لقالوا Boucal لا : Bocal .

ومنها : ان أساس البلاغة المطبوع في دار الكتب المصرية مشحون أغلاطاً شنيعة . ولما عارضنا المطبوع بالمخطوط المحروز في خزانتنا ، لاحظنا فيها أوهاماً يأسف لوقوعها فيه كل عربي غيور . وقد ذكرنا ذلك للعربي الغيور على اللغة العدنانية ، الدكتور منصور فهمي بك سنة ١٩٣٩ وسنة ١٩٤٤ ,فقال لنا : إنهُ يعهد الينا إعادة طبعه بعد الحرب إن أبقانا الله بين الأحياء .

ومنها : أن الذي خدع الواقف على طبعه ، ظن ان مفرد البواقيل هو الباقول ، لمعرفته

---

(١) الذي في لسان العرب : « الشاقول : خشبة قدر ذراعين في رأسها زج تكون مع الزراع بالبصرة يجعل أحدهم فيها رأس الحبل ، ثم يرزها في الارض ويتضبطها حتى يمدوا الحبل » — وفي محيط المحيط : « الشاقول : خشبة تكون مع الزراع بالبصرة ، في رأسها زج كعقب الرمح . ومنه شاقول البناءين والمهندسين والفلكيين . وهم يستعملون منه فعلا ، فيقولون : شقل المكان ونحوه أي اختبر ارتفاعه وانخفاضه. والاسم عندهم الشقلة . قيل : هو معرب شاقول بالفارسية » انتهى — قلنا : هي بالنبطية والمندائية — وهي لغة صابئة البطائح — شاقولا . وكانوا أهل زراعة وصيد سمك في العراق كله .

ان الشواقيل واحدها الشاقول ، فقاس الواحد على الآخر (١).

فهذه أدلة بينة على ان الأستاذ عبد السلام محمد هارون أخذ بالصحيح ونبذ القبيح .

— وجاء في ح ٢ ص ٥٩٩ : « التقنص : الصيد » والذي عندنا ان التقنص كالقنص وهو الصيد بالكلب وذلك أن الكلمة القنص منقولة من اللاتينية Canis أي الكلب أو أنها من اليونانية Kunègesia,as بمعنى اصطاد الصيد مستعيناً بالكلب (٢).

— وقال الموشّي في ح ٣ من ص ٥٩٩ : « والصعو » طائر أصغر من العصفور احمر الرأس، وهي بلغة العلم الأوربي Regulus ومنهُ ما يسمى : Goldcrest or Kinglet قلنا : لو قال الاستاذ أصغر من الدوريّ، أو أصغر من العصفور الدوري لكان أقوم، لأن العصفور في اللغة يطلق على كل طائر دون الحمام . ولهذا يعدّ العصفور نفسه عصفوراً . وقول الاستاذ : « بلغة العلم » الاوربي غير موافق للمصطلح المشتهر، وكان الأحسن أن يقتنع بقوله : « بلغة أهل العلم » نابذاً « الاوربي » نبذ النواة . لان اللفظ العلمي لا يعرفهُ الاوربي فقط ، بل الأميركي ، والأفريقي ، والآسوي ، والاسترالي . وقوله : « بلغة العلم » صحيح بخلاف من أنكر هذا التعبير جهلاً لاسرار العربية .

وقوله Regulus (وهو اسم عام علمي يشمل جميع صغار الطويرات المغرّدة) ثم قوله Kinglet أو Goldcrest وهو اللفظ الانكليزي لنوع من جنس المليك أي Regulus ليس باسم يميزه كل التمييز عن اسم الجنس .

ثم ان الاستاذ عاد فاستعمل العصافير بمعنى الدوريات في كلامه على الدُّخل في الحاشية (٦) من تلك الصفحة فقد قال :

— « الدخل، بضم الدال وتشديد الخاءِ المفتوحة : طير صغار أمثال العصافير تأوي الشجر

---

(١) ومن الادلة المبينة لخطأ اساس البلاغة : أن الطبعة المصرية المذكورة لم تذكر (الشاقول) في مظنتها ولا في أي موطن آخر منها . أما نسختنا الخطية المجودة فقد ذكرتها في مادة ش ق ل . وقد قيدها أيضاً جميع أرباب الكتب لمتون اللغة غير المختصرة

(٢) أن العرب ميزوا بين الصياد والقناص والعركي فالاول يعني كل من يأخذ حيواناً بحيلة أو بوسيلة من الوسائل . — والثاني صياد الحيوان مستعيناً بالكلب — وأغلب ما يكون هذا الكلب من جنس السلوقي وهو الضرو والضري — وأما العركي — فصياد السمك ولم يشتقوا اسماً لمهنته ، فلم يقولوا : عراكة ولا عرك ولا أي لفظ آخر ، كما انهم لم يشتقوا منه فعلا يدل على ذلك

الملتف ، وهي أنواع كثيرة كلها غرِّيد ، يعرف كثير منها عند عامة أهل مصر بالزريقة، وهو بالانكليزية Sylvia or Warbler » فنزيد على ما قلنا في المشارة السابقة أن Sylvia كلمة لاتينية معناها : دغلية أي أنها تأوي الى الدَغل ولعلَّ الدخل العربية مشتقة من الدغل ، ثم وزنت وزن صيغة مبالغة ، لأن موطنها الدائم الأيك والحرج والغابات ، أما الانكليز فلا يعرفون هذه الكلمة الرومية ، إلاَّ العلماء منهم أرباب الثقافة العالية — وأما اللفظ الانكليزي لهذا الطويئر فهو Warbler ومعناه المرنم والمغني والمغرد ، واسم هذا الطويئر بالفرنسية Fauvette.

ومن أسمائها العربية : الشوَّالة والدخناء والكحلاء إلى غيرها .

وقال الاستاذ في ح ٣ ص ٦٠٤ : « الروح النفس ، يذكر ويؤنث » — قلنا : يذكر ويؤنث إذا أريد بهِ ما تقوم به حياة الجسد . أما إذا أريد بهِ العقل والفكر والوحي إلى ما ضاهى هذه المعاني فلا يؤنث البتة . فالروح الأمين عند المسلمين لقب جبريل ، ولا يقال البتة : الروح الأمينة . ويقول النصارى : الروح القدس ولا يقولون : الروح القديسة ولا القدوسة ولا القدسة ولا ما يداني هذه النعوت من الألفاظ المؤنثة ، للدلالة على الاقنوم الثالث عندهم .

٧ — الخلاصة وهي الخاتمة : يتحقق القارىء مما كتبناه هنا أن الأستاذ عبد السلام محمد هارون هو من أحسن من تولى نشر كتب الأقدمين ، فانه صرف زمناً طويلاً في مطالعة الأسفار على اختلاف موضوعاتها ، لابراز نص الجاحظ بأبهى حلة وأصح عبارة ، نابذاً كل ما أدخله فيه النساخ والوراقون من التصحيف والتحريف ، والحذف والسخف ، والزيادة والنقصان ، حتى أصبح هذا الكتاب في جميع أجزائه من أصح وأفصح ما برز في المطابع المصرية منذ نشأتها إلى يومنا .

فنحن نشكره باسم العرب جميعهم ونتمنى أن يتمم ما شرع فيه ويوفقه الله لاخراج سائر مؤلفات الجاحظ ، وأثابه أحسن ثواب .

الأب أنستاس ماري الكرملي

من أحفياء مجمع فؤاد الاول للغة العربية

• مجموع رسائل الجاحظ •

نشره : باول كراوس ، ومحمد طه الحاجري

٢٤×١٧ سم ١٢٤ ص ومقدمة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٣

هذا المجموع النفيس يشتمل على أربع رسائل :

أولها : (رسالة المعاد والمعاش) في الأدب وتدبير الناس ومعاملاتهم . كتب بها الجاحظ إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد . وهي رسالة كبيرة تقع في ٣٦ صفحة يقول في صدرها : « ولم أزل — أبقاك الله — بالموضع الذي قد علمتَ : من جمع الكتب ودراستها والنظر فيها . . فرأيت أن أجمع لك كتاباً من الأدب جامعاً لعلم كثير من المعاد والمعاش ، أصف لك فيه علل الأشياء ، وأخبرك بأسبابها . . . »

ثم يمضي في رسم سياسة حكيمة لمن صنع له هذه الرسالة . وتتجلى لنا دقة الجاحظ واستكناهه لخفايا الغرائز في فرقه بين الغضب والحزن . ثم يحمل حملة شعواء على تلك الخلة التي فرَّقت بين الأمم والأجيال في كل العصور ، وهي المفاخرة بالأنساب . ويسلك بعد ذلك مسلكاً دقيقاً إلى خطإ خلقي آخر يقع فيه كثير من الناس ، فيقول :

« ألاَّ يحدث لك انحطاط من حطّت الدنيا من إخوانك استهانةً به ، ولا لحقه إضاعة ، ولِما كنت تعلم من قدره استصغاراً . بل إن زدته قليلاً كان أشرف لك ، وأعطف للقلوب عليك . . ولا يحدث لك ارتفاع من رفعت الدنيا منهم تذللا ، وإيثاراً لهُ على نظرائه في الحفظ والاكرام . بل لو انقبضت عنه كان مادحك أكثر من ذامّك ، وكان هو أولى بالتعطف عليك » .

وثانيها : (رسالة كتمان السر وحفظ اللسان) وتقع في ٢٤ صفحة ، ولا تقل في الروعة عن سابقتها ، ويتجلى فيها اقتدار الجاحظ على الاحتجاج لما هو بسبيله .

هو يتحدث مثلاً عن الدوافع الملحة التي تدفع بعض الناس أن يستعلنوا ما انطوت صدورهم عليه من السر ، ويصور ذلك في لباقة القصصي الماهر ، إذ يقول : « وكان الأعمش سيء الخلق غلقاً ، وكان أصحاب الحديث يضجرونه ويسومونه نشر ما يجب طيه عنهم ، فيقبل على شاةٍ كانت له في منزله ، فيحدثها بالأخبار والفقه ، حتى كان بعض أصحاب الحديث يقول : ليت أني كنت شاة الأعمش (١) » .

---

(١) انظر ثمار القلوب للثعالبي ص ١٣٤

وثالثها : (رسالة في الجد والهزل) وهي في ٣٨ صفحة ، يسوقها الى محمد بن عبد الملك ابن الزيات . وهي كعنوانها أمشاج من فنون في الجد وأخرى في الهزل . ويسري فيها مثل الروح التي سرت في رسالة التربيع والتدوير .

ومما فيها من الطرائف عقده موازنة بين قراءة المستلقي وقراءة الجالس ، ويحتج للأولى بقوله في الكتب : « ورأيت أن أنظر فيها وأنا مستلق ، ولا أنظر فيها وأنا منتصب ، استظهاراً على تعب البدن ، إذ كانت الأسافل مثقلة بالأعالي ، وإذ كان الانتصاب يسرع في إدخال الوهن على الأصلاب ، ولأن ذلك أبقى على نور البصر ... »

ورابعها : (رسالة فصل ما بين العداوة والحسد) . تقع في ٢٦ صفحة . يقول في أولها : « أصحب الله مدتك بالسعادة والسلامة ، وقرنها بالعافية والسرور ، ووصلها بالنعمة التي لا تزول ، والكرامة التي لا تحول . هذا كتاب — أطال الله بقاءك — نبيل بارع فصل فيه بين الحسد والعداوة ، لم يسبقني اليه أحد » .

وصدق الجاحظ ، فإن أحداً لم يسبقه إلى هذه الدقة البالغة في تمييز هذين الطبعين ، وإن أحداً لم يكتب بعده هذا المعنى ، في مثل تلك القوة والبراعة .

١ — هذه الرسائل الأربع لم يسبق نشرها من قبل . فللأستاذين الناشرين فضل السبق إلى نشرها ، وتمكين الأدباء من تناول ما فيها من فضل بارع وخير وفير .

٢ — وقد سلك الناشران منهج النشر العلمي الصحيح ، وحرصا أشد الحرص على أمانة النقل وصدق الرواية عما بأيديهما من أصول . وهذا مبعث رضا ومثار تقدير لكل من يطالع هذا المجموع من رسائل الجاحظ .

٣ — وقد استعمل الناشران طريقة استحدثاها في التعليق على النصوص ، وأعدَّا لذلك أهبة لا يستهان بها من الأقواس والمعقفات والنقط والرموز والنجوم والاصطلاحات . وهي بلا ريب ضرورية للتعليق والتحقيق . ولكنهما ربطا الجواد خلف المركب ، فظهر في طريقتهما (ولاسيما النجوم) كثير من العسر الذي لا يتغلب عليه إلاَّ حشد قوى الدربة والرياضة . كما خالفا في ذلك الطريقة المألوفة التي جرى الناشرون عليها ، واستساغها جمهور القارئين والباحثين . ولعلَّ من عذرهما في ذلك رغبةٌ التغلب على مشكلة الورق . ولكن ذلك لا يقوم عذراً إزاء ما ابتدعا من صعوبة .

٤ — خلت هذه الرسائل من الشرح ، ولغة الجاحظ الذي كان يتنسم هواء القرن الثالث الهجري ، فيها إشارات وعبارات ومثل وشعر يخفى كثير منهُ على القارئ من الخاصة ، فما

بالك بالوسط ؟ الحق أننا في عصر يفتقر أهله أشد الافتقار إلى من يحسن صلتهم بتراثهم القديم ، وينهج لهم السبيل اليه .

٥ — في الرسائل كثير من الأعلام ، أعلام الناس والبلدان . وهي بحاجة إلى تحقيق وترجمة توضح الجو للقارئ ، وتسعفهُ بفهم النصوص فهماً كاملاً . ومع ذلك لم يظفر علم من أولئك بترجمة أو بتحقيق . ومما جاء محرفاً منها : « غيلان بن خرشة الضبي » ، (ص١١٧) إذ كتب محرفاً برسم : « خرشنة » . وغيلان هذا كان أعرابيـاً جافياً به لوثة ، وكان في أيام زياد ، وله معه حديث طويل سرده ابن قتيبة(١) . وروى أبو الفرج(٢) أن غيلان بن خرشة الضبي دخل إلى قوم من إخوانه وعندهم قينة ، فجلس معهم وهو لا يدري فيمَ هم حتى غنت القينة :

طبيبيَّ داويتما ظاهـراً فمن ذا يداوي جوى باطنا

فغضب ووثب وهو يقول: السوط ـ وربِّ غيلان ـ يداوي ذلك الجوى ! وخرج من عندهم. و « خرشة » بالتحريك . أما خرشنة فاسم لبلد قرب ملطية من بلاد الروم ، غزاه سيف الدولة ، وذكره المتنبي وغيره في شعره .

٦ — خلت هذه النشرة من الفهارس . ولسنا بصدد أن نبين قيمة الفهارس بعد ما وضح للباحثين ضرورتها ، وشدة الحاجة اليها . وليست المائة والأربعون صفحة بالقدر الهين الذي يستغنى فيه عن الفهارس .

٧ — تضمنت الرسائل آيات قرآنية كثيرة . وقد جرى الناشرون المحدثون تبعاً للسلف على تمييزها عن غيرها من النصوص بمميز يظهرها. ولكننا وجدنا الآيات الكريمة تجري مع النص لا يفصلها منهُ فاصل . بل إن بعض الآيات قد جاء متداخلاً في البعض الآخر ، كما في ص١٨ س ١٤ — ١٥ : « خذوا حذركم » « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » رسمت هاتان الآيتان على هذا الوضع : خذوا حذركم ولا تلقوا بأيديكم من التهلكة . مع أنهما من سورتين مختلفتين. وكان أولى من التنبيه في أسفل الصفحة أن يفرق بينهما في الرسم . وقد وردت هذه الآية التالية محرفة : «وتحبون المال حبـاً جمـاً » إذ رسمت بلفظ « ويحبون » بالياء التحتية. وهو سهو عظيم ما كان أجدر بالناشرين ألاَّ يقعا فيه . وقد أجمع القراء على لفظ التـاء الفوقية المثناة لم يشذ منهم أحد(٣) .

بذل الناشران جهداً موفقاً في تصحيح النصوص، ونترك الكلام لهما يقولان : « ومع

---

(١) عيون الاخبار (٣ : ٢٤٤ — ٢٤٦) (٢) الاغاني (١٢ : ٩٢ طبع الساسي)

(٣) انظر سورة الفجر في إتحاف فضلاء البشر ، والقراءات الشاذة لابن خالويه

ذلك بقيت في هذه الرسالة مواضع على فسادها ونقصها ، لم نوفق إلى تصحيحها ، ولم نجد العون على إقامة عوجها في أصل آخر ، أو قراءة أخرى . ولكنا آثرنا أن أنظهر هذه الرسائل على ما فيها مما فات طوقنا ، فذلك خير من أن تظل حبيسة مقيدة . وما يزال أملنا كبيراً في أن يتاح لنا من الوسائل ما يمهد السبيل إلى تصحيحها ، أو أن نجد من نقد الناقدين ما عسى أن يجلو هذه المواضع المغشاة فيها »⁽¹⁾ .

وهذه المواضع التي أشار اليها كثيرة حقًّا ، ولعلي استطعت أن أجلو بعضها :

ص ٦ س ٥ : « اتفقت عليه محاسن الأمم » والصواب : « محاب » جمع « محبة » ويؤكد هذا التصحيح قول الجاحظ في ص ١١ س ١٦ : « وهاتان خلتان داخل فيهما جميع محاب العباد ومكارههم » .

ص ١٣ س ٦ : « لموافقتها » صوابه : « لموافقتهما » .

ص ٢٧ س ١٤ : « أنفس العقدة » وجهه : « العُقَد » جمع عقدة ، وهو ما يعتقده المرء من مال ونحوه .

ص ٣٢ س ١٦ : « فلا تستقبلها بالتضجع وتغبين الرأي » أما التضجع فهو التقعد في الأمر وعدم القيام به . وأما « تغبين » فتحريف ، صوابه : « تغبيب » والمراد به الامهال والتأخير ، مأخوذ من غب الورد : أن تشرب الابل يوماً ، ويوماً لا . والمغببة : الشاة تحلب يوماً وتترك يوماً . أما « التغبين » بالنون في الآخر ، فلم تعرفه اللغة .

ص ٣٢ س ١٨ : « فان الاعتذار يكسر حمَّى اللائمة » . لا يقال كذلك . وإنما هي « حميَّا اللائمة » وحميا كل شيء : شدته وحدته . وانظر ص ٢ س ٥ .

ص ٣٥ س ١٠ : « إن ضبطت ذلك وقومت عليك نفسك » الصواب : «قومت عليه» وفي ص ٣٥ س ١٤ : « والمولّي لكل إحسان» بتشديد لام المولى . الوجه «المُولي» من : أولاه أنعم عليه . ومنه قول أبي الطيب :

وكل امرئ يولي الجميل محبب وكل مكان ينبت العزَّ طيب

ص ٣٧ س ٨ : « ولا يأنف شريف أن يقصر دونك ، ولا يخشع عالم أن يأخذ عنك » صوابه : « ولا يخشى عالم » .

ص ٣٨ س ١٩ : « لأنه يزم اللسان ويخطمه ، ويشكاه ويزبنه » ليس للزَّبن هنا وجه فالزبن : الدفع . وإنما المراد هنا التقييد والحبس . والوجه : « يربثه » ربثه يربُثه ، بالضم : حبسه .

---

(١) انظر صفحة (ي) من المقدمة .

ص ٣٩ س ٩ : « واستعمل فضول النظر فدعت إلى فضول القول » ليس كذلك ، إنما هو تعقيب على ما قبله ، صوابه : « واستعمال فضول النظر يدعو إلى فضول القول » وانظر ما في ص ٥٣ س ٧ .

ص ٣٩ س ١١ : « وجشّمه مؤونة الصبر على ستر الحلم والحكمة » الحلم لا يُتكلف ستره ، وإنما هو : « العلم » . ومما يؤيد هذا التصحيح قوله في الصفحة نفسها س ٤ : « وتنتجه الحكمة والعلم » .

ص ٣٩ س ١٩ : « ثم صرفه في أبواب الباطل والفسق ، فوجب عليه إثم الانفاق منها » الصواب : « فيها » أي في أبواب الباطل والفسق .

ص ٤٨ — س ٣ — ٤ : « الوُلوع بكل ممنوع ، والضجر بكل محصول » . ضبطت واو « الولوع » بالضم ، وصوابها الفتح . كما أن كلمة « محصول » محرفة ، والوجه : « مبذول » .

ص ٤٩ س ٥ : «وقضى ذلك الأرب وطر» وصوابه : « وقضى من ذلك الأرب وطرا » .

ص ٥١ س ١٤ : « تنقب العوام عن أسرار الملوك » وضبطت : « تنقُّب » بتشديد القاف المضمومة . صوابه : « تنقيب » مصدر « نقب عن الأخبار وغيرها بحث أو أخبر بها (١) »

ص ٥٥ س ١١ : « ولو حاجّه فيما ادعى ، ووقفه لانقطع » . إنما هي : « وواقفه » . والموافقة : أن يقف معه في حرب أو خصومة . (٢)

ص ٥٩ س ١٢ : « كلمة غارت فجنت حربا عوانا » الصواب : « عارت » بالعين المهملة . وفي حديث عثمان « أنه كان يشتري العير حكرة ثم يقول : من يربحني عقلها » قال ابن منظور : « العير الابل بأحمالها . فعل من عار يعير إذا سار » . وقال أيضاً : « وقصيدة عائرة سائرة » و « رجل عيار كثير المجيء والذهاب في الأرض » .

ص ٦٣ س ٧ : « يحذرك مُصارع البغي » الوجه : « مَصارع » بفتح الميم .

ص ٦٩ س ٣ : « وتقريظ الثمر » صوابه : « التمر » بالمثناة . ومبنى الكلام كله على الزرع والنخل (٣) .

ص ٦٩ س ٣ : « تميزوا هذا التمييز » إنما هو : « التميز » .

---

(١) انظر اللسان (٢: ٢٢٦ — ٢٢٧) (٢) انظر الحيوان (١:٩٢س٨/ ٤ : ٩٢س١٠) .

(٣) انظر السطر الاول من هذه الرسالة ص ٦١

ص ٦٩ س ٥ : « ومتى صار الحكم للنعجة نسبا وللكرمة صهرا » . ليس للنعجة هنا مقام. إنما هي : « للنخلة » والكلام في المفاضلة بين الزروع (١)

ص٦٩ س ١٣ « وليس هذا أول شرك نصبته ، ولا أول كيد أرغته » . ليس كذلك بل هو : « ولا أول صيد أرغتهُ » أراغ الصيد يريغه : طلبه .

ص ٧٠س١٥ :« وربت كلمة تدور مع خلتها ، وتتقلب مع جارتها ، وبارادة صاحبتها». إنما يقول الجاحظ :« وبإزاء صاحبتها ».

ص ٧٥ س ١٠ — ١١ : « وإذا تطاول الكد رسخ الزُّهد » الصواب :« رُتِج الذهن» أي أغلق . ولا وجه للزهد في هذا المقام .

ص ٨١ س ١٥ : « فلعلّي كنت أعيش بالرفق ، وأتبلغ بحشاشة النفس » الصواب : « بالرَّمق » . والرمق ، بالتحريك : بقية الحياة ، كما أن الحشاشة أيضاً بقية الحياة . ومنهُ قول امرىء القيس (٢) :

وما المرء ما دامت حشاشة نفسه   بمدرك أطراف الخطوب ولا آل

ص ٨٣ س ١٤ : « والغضبان يشغلهُ الغضب ، ويغلي بهِ الغيظ » الصواب : « يشعله » من الإشعال. اعتبر هذا بقوله ص ٨٤ س١ : « واحترق حتى لا يفهم » وقوله س ٧ منها : « وأذكى ناره واشتعل » .

ص ٨٤ س ٤ :«وليس يصارع الغضب أيام شبابه وغرب نابه شيء إلاَّ صرعه » . ليس يقولها الجاحظ ، إنما هي : « إبان » أي وقت .

ص ٨٧ س٧—٨ : «فإني لا أعرف إلاَّ مجازها في الجملة، ولا أحق خاصتها على التحصيل» الوجه :« على التفصيل » وهو ما يقابل:« الجملة ».

ص ٩١ س ١٥ : « وطبيعتك هي المسكنة » صوابه « المسكة » ، والمسكة ، بالضم : ما يتمسك به . وتقابل بها : « الحجة » في السطر السابق .

ص ٩٢ س ٢ : « بما يشيع لك من اسم المتسرع ، وبما تضاف اليهِ من سخف المتبرع » إنما هي « سخف المتترع » بتاءين . وفي اللسان : « تترع إلى الشيء : تسرع . وتترّع إلينا بالشر تسرع . والمتترع : الشرير المسارع إلى ما لا ينبغي لهُ» .

ص ٩٢ س ٣ : « تكذب قولي ، وتفسد خبري » الوجه : « وتفند خبري » والتفنيد : التكذيب . وفي قول الله : « إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون » .

---

(١) انظر السطر الاول من هذه الرسالة ص ٦١ .

(٢) ديوانه ص ١٧ طبع هندية ١٣٢٤

ص ٩٢ س ١١ : « لاستواء الخواطر ، ولا يقافها على الارادة » . إنما هي : « ولا تقافها »

ص ١٠٣ س ٥ : «فغلق المأمون واحتدم» . الصواب : «فقلق» بقافين، كما في الأصل . والقلق : الانزعاج. وهو يجري مع الهياج والاضطرام الواردين في النص . وكلمة : « فغلق » التي جاء بها الأستاذان جميلة ، وهي بمعنى غضب واحتد . ولكن ليس ما يدعو إلى اجتلابها .

ص ١٠٣ س ٧ : « يدب عن كتابي » . هي : « يذب » بالمعجمة .

ص ١٠٥ س ١٤ « والعداوة « تخلق وتمل » . إنما هي : « وتبلى »

ص ١٠٧ س ١ : « وحمه بلخ » باهمال الكلمة الأولى كما في الأصل . هي : « وناحية بلخ »

ص ١٠٧ س ٤ : « وانتفض انتفاض المعلَّس الممطور » . صوابه : المغلَّس » . والتغليس السير في الغلس أو ورود الماء فيه . وما يمطر فيه من الحيوان والطير يكون ذلك أشد لبرده وانتفاضه .

ص ١٠٧ س ٣ : « أخذته الأُرَباء وتنفس الصعداء » إنما هي « الأُرْباء » جمع ربو . والربو : البُهر والتهييج وتواتر النفَس :

ص ١٠٨ س ٢ — ٣ عند ذكر الكتب : « ولا يبلغ أقصى علمه أمانيها » . الصواب : « ما فيها » وليس للكتب أماني .

ص ١١٠ س ١٠ : «وسبباً يستدعي بهِ ألبابهم » . لا يقال كذلك . هي : « يسترعي » بالراء . وجاء في س ١٢ : « استدعى » صوابها : « استرعى » . وهو مثل قولهم : أرْعني سمعك، وراعِني سمعك .

ص ١١١ س ١٥ : «من لطيف ما يستدعى به الصدْق » . صوابه : «يسترعى به الصديق» .

ص ١١١ — ١١٢ : « لما ساغ له في الناس وانتشر منه » . إنما هي : « لما شاع له في الناس »

ص ١١٧ س ١٤ : « وإن اكتسى ثوباً نسيساً » . وليس للنسيس هنا وجه . والصواب : « ثوباً نفيساً » .

ص ١١٧ س ١٥ : « وإذا تخرق في غناه وقرته » كذا وردت بالقاف ، وإنما هي : « وفرته » بالفاء بمعنى تركته ولم أتعرض له .

ص ١١٨ س ٥ : قول النابغة الجعدي :

وليس بمعروف لنا أن نردها صحاحاً ولا مستنكراً أن نعفرا

جاءت « نعفرا » بالنون بعدها عين وفاء . وهو تحريف . والصواب : « أن تعقَّرا » بالتاء بعدها عين وقاف . وقد ورد البيت في مراجع كثيرة (١)

---

(١) انظر منها جمهرة أشعار العرب ١٤٨ طبع بولاق ، والاصابة ٣ : ٨٦٣٣ ، والخزانة ٣ : ١٥٢ طبع السلفية ، وأمالي المرتضي ١ : ١٩٤

ص ١١٨ س ١٨ (للفِنْد الزِّمّاني) : فلما صرخ الشر وأمسى وهو غرثان
وهو تصحيف عجيب، إنما هو : فلما صرَّح الشر فأمسى وهو عريان
صرح الشر : بدا وانكشف، وعريه مثل لظهوره ووضوحه. والبيت من مقطوعة حماسية مشهورة، هي ثاني مقطوعة في حماسة أبي تمام (١).

ص ١١٨ س ٢١ : « كفم الزق وها » الصواب : « وهي » بالياء.

ص ١١٩ س ١٥ قول الراجز : « ومن عداء يتقي بالراح » هذا تحريف. والصواب : « ومن عِذيد » كما رواه الجاحظ نفسه في الحيوان وفي البيان (٢).

ص ١١٩ س ١٩ : « بقاقية تقرى العروق فتحسم » إنما هي : « تفري » بالفاء، أي تقطع.

ص ١٢٠ س ٩ : « وتتابعوا عليَّ تتابع الدبر على مشتار العسل » الصواب : « تتايعوا » و« تتايع » بالياء المثناة التحتية قبل العين. وفي الحديث (٣) : « ما يحملكم على أن « تتايعوا » في الكذب كما يتتايع الفراش في النار ». والتتايع : التهافت والإسراع.

ص ١٢١ س ٤ : أما الحوادث من خليلك مثل جندلة المراجم
إنما هي : « أبقى الحوادث ». والأبيات قالها معاوية أو تمثل بها في قصة طريفة رواها ابن قتيبة والقالي والحصري (٤).

هذا بعض ما بدا لي من غوامض هذه المجموعة، ومنعتني خشية الاطالة أن أتم استيعابه

عبد السلام محمد هارون

٣ — التعقيب

تبيين

قرأت استدراك الأستاذ أحمد محمد شاكر في مقتطف مايو ١٩٤٤ على ما جاءَ في مقالي « دار الحديث النورية ». فشكرت له عنايته وحسن تدقيقه لاهتدائه الى خطإٍ ومحال وقعتُ فيهما.

أما المحال فهو أن أروي عن الذهبي حوادث جرت في سنة ٧٩٩ وهو الذي قد توفي سنة ٧٤٨ على قول أكثر مؤرخيه، وهو الصواب، أو سنة ٧٥٣ على قول ابن إياس (بدائع الزهور ج ١ ص ١٩٩) ودائرة المعارف الاسلامية في أثناء ترجمتها للذهبي.

---

(١) حماسة أبي تمام (١ : ٦) وانظر حماسة البحتري ٧٤ وأمالي القالي (١ : ٢٦٠) والاغاني (٢٠ : ١٤٣) (٢) الحيوان (١ : ٣٥١/٣ : ٧٩ — ٨٠) والبيان (٣ : ١٩٠) طبع سنة ١٣٤٥

(٣) اللسان (٩ : ٣٨٧) (٤) عيون الاخبار (٣ : ٥٠) والامالي (٢ : ٣١١) وزهر الآداب (١ : ٤٦).

وأما الخطأ فهو أن أقول أن التتار دخلوا دمشق سنة ٧٩٩ مع أنهم قد دخلوها سنة ٨٠٣ ، وهذا أمر معروف مشهور ، ذكره ابن العماد والسخاوي وابن تغري بردي ، وابن طولون الصالحي وابن إياس وكردعلي ، وغيرهم كثير . ولكن الحادث الذي نقلناه عن الذهبي هو حادث جرى سنة ٦٩٩ تسع وتسعين وستمائة — وقد كتبت الستة ، سهواً ، سبعة — فقد ذكر الذهبي في دول الاسلام (المطبوع بحيدر آباد سنة ١٣٣٧ — ج ٢ ص ١٥٧) ما نصه : « ثم دخلت التتار دمشق وشرعوا في المصادرة والعسف وبنوا (نهبوا) الصالحية وسبوا أهلها وأتعبوا الخلق ووقع الحريق من صاحب سيس والكفرة فأحرقوا جامع العقيبة وعدة أماكن وحاصروا القلعة ودار السعادة ودار الحديث والعادلية والنورية وخربت تلك الناحية كلها وهرب أهلها وبقى باب البريد اصطبلاً فيهِ الزبل نحو ذراع . »

دمشق أسعد طلس

◆

ردّ

وردت الينا كلمة من الاستاذ محمد عبد العزيز مرزوق رداً على الاشارة التي نشرت في مقتطف يونيو الى رسالته « الاسلام والفنون الجميلة » . فجاءَ في الرد أن صاحب الاشارة لم يناقش آراء الرسالة ، وأنهُ أخذ عليهِ نشر صور منقولة عن كتب في الفن طبعت من قبل في مصر من دون أن يذكر تحت كل صورة المصدر المنقول عنهُ ، فهذا في رأي المؤلف مباح لأنهُ « من الاسراف حقاً ألاَّ يستفيد الانسان من كليشهات أنفقت الدولة على صنع معظمها طالما انها تكشف عن الفكرة بجلاء فضلاً عن انهُ ذكر في احدى صفحات الرسالة أسماء الكتب التي نقل عنها الصور » .

والجواب عن هذا عند صاحب الاشارة انهُ ما أراد سوى التعريف بمضمون الرسالة ولم يرَ مجالاً لمناقشة الآراء وهي في نظره على حسن عرضها ليست على خطر ولا جدة . وأما قصة « الكليشهات » أي أصول الرسم المنقولة عن كتب أخرى فالرأي عند صاحب الاشارة انهُ لابد من ذكر المصدر تحت كل صورة فلا يكفي الايماء في هامش بذيل الكتاب. ثم ليس لانفاق الدولة دخل في هذا التدقيق من جانب المؤلفين ، إذ الفضل للمنقب عن الرسم والمختار له لا للدولة ، وهي هنا تقوم مقام ناشر من الناشرين . وكيفما كانت الحال فليس من المرغوب فيه — عامة — أن تستغل رسوم أنفقت عليها الدولة في كتاب من الكتب ليس مما تقوم الدولة على طبعه ونشره . *

باب الأخبار العلمية

تأثير النيكوتين حقناً يعادل تأثيره تدخيناً (١)

حقن النيكوتين تحت الجلد

يتخذ تدخين الأفيون وسيلة لتعاطي المورفين . كما يتخذ تدخين التبغ وسيلة لتعاطي النيكوتين . ولمعرفة مبلغ تأثير عقار النيكوتين في الجسم عني الأستاذ جونتسون (٢) بتجربيه حقناً تحت الجلد في خمسة وثلاثين متطوعاً بمقادير معروفة للموازنة بين أثره فيهم وماهو معروف من أثره بالتدخين . فقد حقن سبعة منهم بجرعة واحدة أو حقنة على حين حقن الآخرين بمقادير تختلف بين جرعتين وخمس وثلاثين جرعة . وكان لحقن شخص لا يدخن بجزء $\frac{١}{٥٠}$ من القمحة تأثير من العسير وصفه بأكثر من أنهُ يماثل التأثير الذي ينشأ عن التدخين ؛ فكانت تبدو على المحقون الأعراض نفسها التي تبدو على المدخن الجديد كالدوار والغثيان والدوخة والصداع والاغماء وهي أعراض من السهل تمييزها وارجاعها إلى فعله الخاص به دون سواه . وفضلاً عن ذلك يقول المدخنون الذين حقنوا بالنيكوتين على اختلاف مزاجهم أنهم يشعرون بلذة بعد الحقن به بقليل كما لو كانوا يدخنون أنواع اللفائف التي اعتادوا تدخينها من زمن طويل . وإذا حقنوا بجرعات متتابعة جرياً على نظام تدخينهم عزفوا عن التدخين فترة أطول من الفترة التي كانوا يقضونها بلا تدخين .

وأما غير المدخنين فيصفون شعورهم بعد الحقن به بأنهُ شيء غريب مزعج وأنهُ يماثل شعور المبتدئ بالتدخين، ولا يحس بهذا الشعور إلاَّ بعد مضي خمس دقائق على حقنه . ويستمر هذا التأثير والشعور نحو خمس عشرة دقيقة . ويشعر المحقون بالنيكوتين بألم في موضع الحقن وربما امتدَّ الألم من مكان الأبرة إلى طرف الفخذ أو الساعد المحقون ثم يتلاشى بعد زمن قصير . ويقول الأستاذ إنهُ حقن شخصاً لا يدخن بمقدار $\frac{١}{٤٠}$ من القمحة فظهرت عليه أعراض التسمم في حين لم يتأثر المدخن المدمن من حقنه بمقدار $\frac{١}{٢٠}$ من القمحة بعد مرور ساعة على تدخين لفافته. وفي هذا دليل على تأثير العادة وطاقة الجسم من تعود كمية النيكوتين بالتدخين .

أعراض التسمم

وأعراض التسمم تتجلى في دوار عنيف وسرعة في ضربات القلب وغثيان وقيء وإغماء . ومع أن نسبة النيكوتين في التبغ تختلف بين نصف الواحد وخمسة في المائة ونسبة ما حقن منه في الوريد بين $\frac{١}{٥٠٠}$ و $\frac{١}{٧٥٠}$ من القمحة ، فان تأثيره في الحالين

---

(١) من محاضرة ألقاها الدكتور شخاشيري في مؤتمر الجمعية الطبية الملكية المصرية بدار الحكمة في ٧ ديسمبر ١٩٤٣

(٢) عن مجلة اللانست الطبية الانجليزية

كان واحداً . أي أن ما يشعر به المدخن عند استنشاقه نفساً من الدخان يماثل ما يحس المحقون به من تأثير . وهذا يؤيد ما تقدم وهو أن ما يحدثه التدخين في نفس المدخن من تأثير يعادل ما تحدثه حقنة منه تحت الجلد بمقدار $\frac{١}{٥٠}$ من القمحة في المحقون نفسه . وفي الغالب يحس بأثر النيكوتين بعد تعاطيه بخمس عشرة ثانية سواء كان حقناً أو تدخيناً . ويستمر ذلك الأثر من دقيقة إلى بضع دقائق . وأعطى الأستاذ النيكوتين بالفم بنسبة $\frac{١}{١٥}$ من القمحة في مائة وخمسين جراماً من الماء فكان له بهذا المحلول طعم التبغ وخصائصه . وأعطاه في محلول آخر ولكن بنسبة أعلى فلم يسغ مذاقه وكان طعمه حريفاً مزعجاً . ويقول الأستاذ إن في تدخين لفافة كاملة ما يعادل تأثير $\frac{١}{١٠}$ من القمحة لو أخذ بالفم .

أستاذ يفضل الحقنة على التدخين

وقد تناول الأستاذ نفسه ثمانين حقنة من النيكوتين بنسبة $\frac{١}{٥٠٠}$ من القمحة بمعدل ٣ في اليوم مع قليل من اللفائف فغدا بعد هذا الاختبار الطويل يفضل الحقنة على تدخين اللفافة . ويقول إنه شعر بشيء ينقصه عند ما أمسك عن حقن نفسه به . ويقول إنه أعطى النيكوتين سيدة مصابة بمرض عصبي دون علمها ، وان المريضة قالت له عندما توقف عن إعطائها إياه إنه كان أشد وطأة في تأثيره فيها من الدواء « فينوبار بيتول » الذي كانت تتعاطاه من قبل بنسبة قمحة في كل جرعة ، وكان النيكوتين مع ذلك أدعى إلى تهدئة أعصابها منه ، وإن كان لم ينومها مثله . وأظهرت له استياءها عند توقفه عن متابعة إعطائها إياه .

ومدمنو اللفائف يشعرون قليلاً أو كثيراً بدوخة النيكوتين الخاصة به ، ويطيب لهم بنوع خاص الاستمتاع بلذة التدخين في الصباح ، ولا سيما بعد القهوة أو الشاي ، وهم لا يأكلون ولا يشربون القهوة وغير القهوة في ذلك الوقت إلاَّ لأجل اللفافة وإشباع رغبتهم من طعمها وإطفاء شهوتهم بتلك الرائحة المتصاعدة منها . وهذا ناشئ ولا شك عن إدمان ممارسة التدخين وتعوده لا عن شيء آخر .

سبب ارتياح المدخن

وإن الارتياح الذي يشعر به المدخن عند ما يستنشق دخان اللفافة عائد إلى نوع من التخدير وتنبه كريات الاحساس في المخ . وإن الشهوة الملحة في طلب ذلك الارتياح ناشئة عن خلو الجسم من المخدر الذي هو النيكوتين وزوال تأثيره عنه . وبعبارة أوضح إن شعور اللذة في التدخين مسبب عن استفزاز خلايا الاحساس بالدماغ ، وان الرغبة في طلبه من جديد منشؤها أولاً الارتياح الذي يشيعهُ في النفس من استنشاقه . وثانياً التهيج الذي يشعر به المدخن بعد زوال تأثيره عنهُ أو شعور التهيج في الأغشية التي

يلامسها الدخان كالفم . والمسالك الهوائية بعد زوال الأثر الذي أحدثهُ فيها .

وعلى هذا الضوء من البحث نحكم بأن النيكوتين أو التدخين على مختلف أشكالهِ مخدر كالمورفين وأشباهه ، وله من المزايا والخصائص ما لتلك « المكيفات » من مزايا وخصائص ، فهو يخدّر الأعصاب ويشيع الارتياح في النفس ويغري المدمن بالتعلق بهِ والإعتماد عليه في تخدير أعصابه المكدودة وتسكين أفكاره المضطربة . والشواهد على هذا كثيرة لا يتسع المجال لبحثها وعرضها الآن .

تجاوز الحدود يفقد اللذة

ولكن طاقة الخلايا للاستفزاز وقبول رسائل التنبه محدودة . ولذلك عند ما يتجاوز المدخنَ تلك الحدود لكثرة تدخينه يفقد شعور اللذة التي كان يشعر بها من قبل ، أو يخيل اليه انهُ قد فقدها أو فقد جزءًا منها ، ويظن أن ذلك راجع إلى قلة تدخينه لا كثرته ، فيندفع في مداواة ذلك التهييج والاضطراب بالتي كانت هي الداء — بالتدخين — على أمل أن يروي ظمأه ويرضي شهوته منه . ولكن إرضاء الشهوة محال ، وكلما تمادى في التدخين من جديد ازداد رغبة فيه وتعلقاً به ، وهكذا تتأصل العادة فيه ، ومبلغ تأصل العادة في مدمن المخدّر يقاس بالصعوبة التي يلاقيها عند ما يحاول الاقلاع عنه .

وانهُ لمن الصعب حقًّا على المدخن المدمن الذي قضى نصف عمره يدخن أن يقلع عن التدخين فوراً إلاَّ إذا وهبه الله عقلاً نيراً وإرادة قوية . والمدمنون عادة لا يكترثون لما ينتابهم من توعك ومرض معتقدين خطأً بأن أسباب ما يصابون بهِ من التهابات رئوية وشعبية وزكام وغير ذلك لا علاقة له ولا يمكن أن يكون له علاقة من قريب أو بعيد بالتدخين ، ويستاؤون فعلاً ممن يقول لهم بأن التدخين قد يكون السبب في علتهم وما حلَّ بهم من أسقام . وعلى هذا تكون أقوالهم عن تأثير التدخين في صحتهم موضع شك كبير . والواقع أن ما يقوله معظم المدخنين في هذا الشأن يناقض دائماً الأعراض البادية عليهم منه بقدر ما يتفق مع زمن عهدهم به وتعودهم إياه . وقليل منهم يرغب صادقاً في الاقلاع عن التدخين . وقد يحاول بعضهم التغلب على شعور الاستمتاع به ولو إلى حين ، وقد ينجح في محاولاته حيناً ويخفق ويا للاسف أحياناً . وفي حال امتناعهم عن التدخين تتحسن صحتهم وخصوصاً مدمن اللفائف ، وبعضهم ينكر التحسن في صحته ويدعي نقيض ذلك إما غفلة أو عمدا .

ومعظم الذين ظهرت عليهم أعراض الالتهابات الرئوية والشعبية والقرحة المعدية والعتامة في النظر يستحيل عليهم الكف عن

التدخين إلاَّ عند ما تسوء حالتهم الصحية ويتقدم فيهم الداء إلى مواطن الخطر . وإذ ذاك يكون انقطاعهم قصير الأمد لدنوهم من باب النهـاية المحتومة عليهم وعلى الأحياء جميعاً .

الدكتور شخاشيري

الماء العذب في المحيطات

في أزمنة الحرب، تكثر حوادث غرق السفن بأنواعها ، ويلجأ ركابها الى قوارب النجاة يتكدسون فيها منتظرين رحمة القدر تجيء اليهم في سفينة أخرى تنقذهم ، أو طائرة تهبط عليهم فتنجيهم من أهوال المحيطات

ولئن نجا ركاب هذه القوارب من غرق، فلن ينجوا من جوع يفري أحشاءهم وظمأ يجفف ألسنتهم .

فرأى حاكم بنسلفانيا السابق ، جيفورد پنشو Gifford Pinchot أن يبحث ويستقصي عسى أن يصل إلى مخرج من غائلة الجوع ومهرب من وطأة الظمأ .

ومنذ عامين ، قرأ پنشو خبراً عن ثلاثة من الطيارين هوت بهم طائرتهم البحرية في المحيط ، واستطاعوا أن يعيشوا ٣٤ يوماً في المحيط الهادي على طوف من المطاط ، بفضل تناولهم طعاماً مؤلفاً من طائرين وسمكات ثلاث . وعلى أثر قراءة هذه القصة ، أطلق پنشو لتفكيره العنان ، فأدرك بعد أن عاد بذاكرته إلى السنوات التي قضاها في صيد الأسماك ، أن صغار الأسماك تتجمع حول الأجسام الطافية كالقوارب وحطام السفن وما إليها ، فتتبعها السمكات الكبار لقنصها وافتراسها ، وحدَّث پنشو نفسه قائلاً : «ولِمَ لا تُجهَّز جميع قوارب النجاة بقناصة لصيد الأسماك ، لعلها ترد عن اللاجئين فيها وطأة الجوع وتبقي على حياتهم بضعة أيام .

ظلت أصداء هذه الآراء تتجاوب في عقله إلى أن ذهب مع أسرته إلى مدينة دانية لتمضية عطلة الأسبوع . وبينما هو في هذه البلدة ، خطر له أن يزور أحد المشافي المحلية ويتحدث إلى المرضى الذين نجوا من السفن المغرقة بفعل الطرابيد . فكانت لكل من نزلاء المستشفى آراء مختلفة ، ولكنهم اتفقوا جميعاً على أمر واحد ، وهو أن ما نهكهم لم يكن انفجار السفينة ، ولا الجوع ، ولكن الذي أصاب منهم مقتلاً هو : الظمأ .

وفي مساء ذلك اليوم ، طرح جيفورد پنشو جسمه على فراشه طلباً للنوم ، ولكن هيهات . وفي ذلك تقول زوجه : « لقد ظل طوال الليل ، وأنا يقظة ، إلى جانبه يردد : «لابد أن هناك وسيلة للظفر بالماء في المحيط» . وفي صباح اليوم التالي ، قفز پنشو من فراشه وقد اختمرت في عقله فكرة . لقد عرف أن جسم الانسان يحتوي على مقدار كبير من الماء ، فَلِمَ لا يصدق

ذلك على الأسماك ؟ ولِمَ لا يكون هذا الماء أو العصير ، صالحاً للشرب ؟

وتذكر أنه كان في حداثته يهوى صيد الأسماك ، ويقطع البحار الجنوبية في رحلات صيد يقضى فيها نفسه ، ويجوب بقاعاً مجهولة غير مطروقة ، إشباعاً لنهم الهواية وتلبية لندائها . وتذكر أيضاً أنه تناول طعاماً من السمك النيء ، فلم يجد طعمه مرًّا ، أو كريهاً .

ومن ثمَّ ، قام الشيخ پنشو وهو في السادسة والسبعين ، يطوف بتجار السمك في وشنطن باحثاً عن سمك بحري طازج . ولما عثر على بغيته ، أخذ منهُ شريحة وخلطها بقليل من الأرز ثم لفّها في قطعة من القماش كالتي تستعمل في حفظ الجبن ، وأمسك بطرفيها وعصرها ، فانساب منها سائلٌ ورديّ اللون . ولما تذوّقه ، وجده عذباً ، وليس بهِ من طعم السمك إلاَّ الشيء اليسير جدًّا . وبهذه الوسيلة السهلة ، استطاع پنشو أن يحول ١٢ ٪ من وزن السمكة إلى عصير ، وباستعمال ضاغطةٍ يدوية بسيطة استطاع مضاعفة مقدار العصير .

ولما أحرز هذا النجاح ، رأى پنشو بمساعدة أحد أطباء جامعة نيويورك ، أن يجري تجربة للتثبت من أن هذا السائل يؤدي وظيفة الماء في الابقاء على الحياة . فتطوع رجلان للامتناع عن شرب الماء عشرة أيام ، ولم يتناولا في هذه الفترة سوى عصير السمك والجراية العادية التي تمنح ركاب قوارب النجاة . فأسفرت النتيجة عن نجاحٍ تام ، إذ أمضى الرجلان المدة المعينة في صحة جيدة جدًّا .

« هذا جميل ، ولكن كيف يستطيع أناس قذفتهم الأمواج في قاربٍ للنجاة وسط محيطٍ مقفر ، استخلاص العصارة من السمك ؟ » هكذا كان اتجاه تفكير پنشو

ووردت على خاطره أيضاً ذكريات الماضي ، فأدرك أنهُ كان قد خرج للصيد مع صديق يدعى تشارلس نوردف Charles Nordhoff ، فأرسل اليهِ يسأله ، أكان أهالي المناطق التي قصدوها للصيد ، يشربون عصير السمك . فردّ عليه نوردف قائلاً :

« يقول الپولينيزيون إن الانسان يستطيع أن يعيش مدة طويلة دون تناول الماء إذا مضغ السمك النيء ، ولفظ الأجسام الصلبة جميعها »

فابتهج پنشو وقال: « لسنا في حاجة إذاً إلى ضغط السمك او عصره ، لأن كل رجل يحمل معصرته الخاصة ، وهي لا تزيد شيئاً على حمولة قارب النجاة . وأرجو أن لا يمضي طويل وقت ، حتى يكون كل بحّار قد عرف أنهُ يستطيع في زمن الضيق أن « يشرب » سمكاً نيئاً ويأكلهُ أيضاً . لأن نسيج السمك — كما قال نوردف — من أفضل الأطعمة المغذية وأسهلها هضماً »

وديع فلسطين

فهرس الجزء الثاني

من المجلد الخامس بعد المائة

٩٩ الحالة الجوية وتأثيرها في الأجسام الحية : لفؤاد صروف

١٠٦ الفجر الروحاني (قصيدة) : لبودلير

١٠٧ مآثر الملك فؤاد على معاهد العلم : لمحمد زكي الابراشي باشا

١٢١ جو جزيرة العرب وأثره في الهجرات السامية : للدكتور رفيق التميمي

١٣١ الدين والفلسفة — الشيخ محمد عبده والتوفيق بينهما : لمحمد يوسف موسى

١٣٥ المطالب الخلقية بعد الحرب : للدكتور تشارلس وطسن

١٤١ المآصر في بلاد الروم والاسلام : لميخائيل عوّاد

١٤٥ الرؤساء الثلاثة — ٢ . لنكان محرر الرقيق : للدكتور نجيب الأرمنازي

١٥١ على هامش العيد الألفي لأبي العلاء — مدرسة المعري : لكامل كيلاني

١٦٠ عمر الخيام كما أعرفه : لمحمود المنجوري

باب التعريف والتنقيب

١٦٣ ١ — الكتب : « أقاصيص » نشرته لجنة النشر للجامعيين . نقد بقلم صديق شيبوب — « بشار بن برد » تأليف ابرهيم عبد القادر المازني . نقد بقلم بشر فارس — « دراسة الشعراء » تأليف المرصفي وابرهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي . نقد بقلم ابرهيم عبد القادر المازني — « تراث مصر » نشره س . ر . ك . جلنفيل . نقد بقلم وهيب كامل — ثم كتب أخرى ظهرت .

٢ — الاستدراك : « كتاب الحيوان ، الجزء الخامس » بقلم الاب انستاس ماري الكرملي — « مجموع رسائل الجاحظ » بقلم عبد السلام محمد هارون.

٣ — التعقيب : « تبيين » بقلم أسعد طلس — « رد » بقلم *

١٩١ باب الأخبار العلمية * تأثير النيكوتين حقناً يعادل تأثيره تدخيناً . حقن النيكوتين تحت الجلد. أعراض التسمم . أستاذ يفضل الحقنة على التدخين . سبب ارتياح المدخن . تجاوز الحدود بفقد اللذة : للدكتور شخاشيري — الماء العذب في المحيطات : لوديع فلسطين.